

مذاهب وشخصيات

ماكميلان

شخصية سياسية

MACMILLAN

Portrait of a Politician

By EMRYS HUGHES

بقلم ايمرى هيوز

عضو مجلس العموم البريطانى

ترجمة حسين الحوت

مراجعة حمدى حافظ

مذاهب وشخصيات

ماكميلان

شخصية سياسية



بقلم ايمرى هيور
عضو مجلس العموم البريطانى
ترجمة حسين الحوت
مراجعة حمدى حافظ

تقديم

ايمرى هيوز ، مؤلف هذا الكتاب ، صحفى بريطانى وعضو عمالى بمجلس العموم عن جنوب مقاطعة ايرشاير بانجلترا ؛ وهو من أشهر نقاد ماكميلان البرلمانيين ، كما أنه من أوسع الكتاب البريطانيين معرفة بماكميلان ونشأته وأسرته وحياته الخاصة والعامة ، ويعتبر مؤلفه الذى بين أيدينا ، والذى أخرجه تحت عنوان «شخصية سياسية» أول ترجمة مستفيضة لرئيس وزراء بريطانيا الحالى ، ودراسة هذا الكتاب هى فى الواقع دراسة لتطورات الحوادث فى بريطانيا ، فى فترة من أشد فترات حياتها خطرا ، وقد يكون فى هذه الفترة الحرجة تقرير مصير بريطانيا نهائيا ، وانزواؤها فى ركن من سجل التاريخ .

فى هذه الترجمة لحياة هارولد ماكميلان ، يعود بنا المؤلف الى الماضى البعيد ، حين اضطر جد ماكميلان الى الهجرة من موطنه فى اسكتلندة ، الى لندن ، تخلصا من الفقر ، وبعد سنوات طويلة من الكفاح ، استطاع هذا المهاجر الاسكتلندى ، أن يثبت مركزه فى ميدان الطباعة والنشر ، وأن يؤسس دار ماكميلان ، وهى من أكبر دور النشر العالمية .

ويتناول المؤلف حياة هارولد ماكميلان السياسية ، منذ بدايتها يوم كان بين الشباب التقدمى فى حزب المحافظين ، وكيف أنه ثار على ستانلى بولدوين ونيفيل تشمبرلين ، اللذين تزعما المحافظين فى فترة ما قبل الحرب العالمية الثانية . وعودته بعد ذلك الى التأليف والنشر ، وهو فى ذلك يتحدى ما استقرت عليه الأوضاع حينذاك ، فى ميدانى السياسة والاقتصاد .

وينتقل بنا المؤلف بعد ذلك ، الى موقف المعارضة الذى اتخذه ماكميلان ، من وزارة العمال ، التى تولت حكم بريطانيا فى أعقاب الحرب العالمية الثانية وظهوره كزعيم من زعماء حزب المحافظين بعد اعادة تنظيمه ، ومساهمته فى مهاجمة حزب العمال ، مما أدى الى تثبيت مركز المحافظين فى الحكم ، طوال العقد السادس من القرن العشرين .

ويتحدث المؤلف عن الدور الذى قام به ماكميلان ، كوزير للاسكان ، ووزير للدفاع ، ثم للخارجية ، ثم للمالية ، وأخيرا دوره الكبير فى الشئون الداخلية والخارجية ، بصفته رئيسا لوزراء بريطانيا .

ولقد صحب المؤلف هارولد ماكميلان ، فى أثناء زيارته الشهيرة للاتحاد السوفييتى عام ١٩٥٩ ، وضمن مؤلفه فصلا عن المحاولات التى قام بها ماكميلان ، فى خلال محادثاته مع خروشوف ، لتسوية الخلافات بين الشرق والغرب .

ويقول ايمرى هيوز ، انه على الرغم من أن كتابه قد صيغ فى عبارات تتسم أحيانا بالنقد ، بل التهكم ، فانه قد استند فى اعداده الى معلومات صحيحة ، مستقاة من وثائق لرجال السياسة ، من الجانبين الشرقى والغربى . واذا كانت الصورة التى قدمها عن ماكميلان ، كرجل سياسة ، تثير كثيرا من الجدل ، فانها فى الوقت نفسه بعيدة عن أن تكون صورة شاحبة مملة ، بل انها على العكس من ذلك تثير اهتمام القارىء كلما توغل فى الموضوع .

يقدم المؤلف استهلالا طريفا ، ينقل فيه ردا للكاتب العالمى الساخر برنارد شو ، اذ سئل عن السبب الذى دفعه لتأليف مسرحية عن جان دارك ، فقال شو على الفور : ذلك لكى أنقذها من قلم جون درنكوونز . ولعل ايمرى هيوز أيضا ، قد سبق الى اعداد ترجمة ، لهارولد ماكميلان ، كى ينقذه من قلم راندولف تشرشل ، الذى كتب تاريخ حياة انطونى ايدن ، وبذلك أثار حول نفسه عاصفة من نقد الاعضاء المحافظين ، فى مجلس العموم البريطانى .

وهنا يقول المؤلف : ان الكتابة عن حياة ايدن ، كرجل سياسة ، أسهل بكثير من الكتابة عن ماكميلان ، ذلك أن حياة ايدن . ليس فيها من العمق والغموض والتعقيد ، مثل مافى حياة ماكميلان .

وهو يستشهد بحديث جرى بينه وبين أحد الدبلوماسيين الأجانب ، فقد وجه اليه سؤالا ، عن رأيه فى ماكميلان ، وكان رد هذا الدبلوماسى : أى ماكميلان تقصد ؟ ، فماكميلان يتغير بتغير الزمان والمكان والظروف المحيطة به !

ويعلق المؤلف على ذلك قائلا ، اننى لن أتعرض لماكميلان فى تغيراته الكثيرة ، وسوف أكتفى فى كتابى برسم صورتين ، احداهما لهارولد ماكميلان الشاب المحافظ ، الثائر على حزبه ، الذى يحاول أن يضع لهذا الحزب برنامجا جديدا وسياسة جديدة ، ولكنه لا ينجح فى محاولته . أما الصورة الأخرى فهى لماكميلان السياسى الناضج ، فى فترة ما بعد الحرب . الذى استطاع أن يصبح زعيما للمحافظين ، ورئيسا للوزراء .

ويبدى المؤلف رأيه فى هاتين الصورتين ، فيقول ان الصورة الأولى ، أى صورة ماكميلان الشاب التقدمى الثائر ، تبعث فى نفسه التقدير والاعجاب ، أما الصورة الأخرى ، أى صورة ماكميلان السياسى الناضج ، فهى خليط من المحاسن والمساوىء . ذلك ان ماكميلان ، بعد أن أصبح رئيسا للوزراء ، تنكر للمبادىء والمثل العليا ، التى طالما دعا اليها وتغنى بها .

ويوجه المؤلف نقدا لاذعا لماكميلان ، الذى اندفع يوما ما فى آرائه التقدمية ، حتى قيل انه يسارى ؛ ثم لما أصبح رئيسا للوزراء ، قالت جريدة التايمز ، انه يمثل الجناح اليمينى من المحافظين . ويروى حديثا جرى بينه وبين عضو قديم ، فى حزب العمال ، عن السبب فى تحول ماكميلان من اليسارية التقدمية ، الى اليمينية المحافظة ، وقد رد عليه العضو العمالى

قائلا : ان المسألة لم تكن فى نظر ماكميلان مسألة مبدأ • ولكنها مسألة طبقة ، أما وقد ارتقى الى صفوف الطبقة الارستقراطية ، فقد نسى ماضيه !

ويؤكد المؤلف ان ماكميلان ، حينما أصبح رئيسا للوزراء ، لم يعد بعد زعيما حقيقيا للمحافظين ، بل سجينا فى أيديهم ، ورأسا سياسيا أجوف ، بل أن مهمته ، بعد أن كانت توجيه المحافظين ، أصبحت مقتصرة على تهدئة روع الثائرين منهم ، والتوفيق بين مصالحهم المتضاربة • وصارت خطبه مجرد ثرثرة لسياسى • يتحدث وهو يتطلع من بعيد الى الانتخابات القادمة ، بدلا من أن تكون برنامج مصلح ، يفكر فى الأجيال القادمة •

ويقول المؤلف ان العالم لم ينظر الى ماكميلان ، نظرة ملؤها التقدير والاكبار ، الا يوم ذهب الى الاتحاد السوفيتى ، فى محاولة لوضع حد للحرب الباردة ولسباق التسلح ، ولكنه عندما ذهب الى هناك ، خيب الآمـال المعقودة عليه ، بافتقاره الى الجرأة التى يتطلبها الموقف ، وعجزه عن ابتكار سياسة دولية جديدة ، تحقق السلام ، والتمسك بها كأنها مبدأ وعقيدة •

ويوازن الكاتب بين موقفين لماكميلان ، أحدهمـا قبل أن يصبح رئيسا للوزراء ، اذ كان دائما يرفض سياسة المهـادنة رفضا قاطعا ، وثانيهما بعد أن تولى الرياسة ، حيث أخذ يهادن العدو الحقيقى للشعب البريطانى ، ممثلا فى تلك الرأسمالية الطاغية ، ومن يسير فى ركابها من رجال المال وكبار الملاك ، من أصحاب المزارع والمصـانع • وهنا يذكر قانون الايجارات الجديد ، فيقول انه جعل بريطانيا نعيما للملاك ، وجحيما للملايين من الكادحين •

ويعيب المؤلف على ماكميلان ، استسلامه لأصحاب المشروع الفردى ، الذين يكدسون الثروات على حساب الشعب ، وعجزه عن اعادة تنظيم الصناعة البريطانية ، بحيث تستطيع مواجهة ظروف العالم الاقتصادية السريعة التغير ونتيجة لذلك فقد عجزت هذه الصناعة ، عن بناء اقتصاد بريطانى سـليم ، يضمن للشـعب البريطانى اطراد ارتفاع مستوى معيشته •

ويبدى المؤلف دهشته متسائلا : كيف يتمسك ماكميلان بالمشروع الفردى ، فى وقت يتجه فيه العالم الى التكتلات الاقتصادية ، لا فى داخل البلد الواحد ، بل بين المجموعات الدولية أيضا • وكيف يترك ملوك المال من غير رقابة حقيقية من الدولة فى عصر ثبتت فيه جذور الاشتراكية ، وأصبحت للعالم دينا وعقيدة •

ويعرض المؤلف للحديث ، عن علاقة ماكميلان بالسوق الأوربيـة المشتركة ، فيقول ان رئيس وزراء بريطانيا ، حينما عجز عن مواجهـة الاصلاحات الحقيقية فى بلاده ، بمواجهة المسيطرين على الاستثمارات ، فى صراحة وشجاعة ، لجأ الى السوق المشتركة ، علّه يجد فيها ملاذا ، يستطيع تحت لوائه أن يبنى مشروعا طويل الأجل ، لضمان مستقبل بريطانيا •

ويتحدث عن سباق التسلح ، فيقول انه على الرغم من أن ماكميلان ،

يدرك أن ميزانية التسلح تهدم اقتصاد بريطانيا ، فقد أخذ يبدد الاموال على أسلحة عتيقة ، ويقامر على اسلحة جديدة ، نصيبها الفشل ، مثل « السهم الازرق » ويضيع جهود العلماء والفنيين والعمال البريطانيين ، لتحقيق حلم خيالي لا يعيش الا في رأسه ، وهو أن تصبح بريطانيا قوة ذرية مستقلة ، تستطيع الوقوف وحدها في وجه الاتحاد السوفييتي .

ويوازن بين موقف كنيدى من حماية الشعب الامريكي وموقف ماكميلان من العجز عن حماية الشعب البريطاني ، فيقول ان كنيدى صرح بأنه لا بد من بناء مخابىء ، تحمى الامريكيين من الغارات الذرية ، في حين ان ماكميلان ، اعترف بأنه ليس هناك ملجأ للبريطانيين من الاشعاع الذرى ، الذى تخلفه الغارات ، لأن بريطانيا ليس لديها المال اللازم لذلك .

ويفرد فصلا خاصا للعدوان البريطاني على مصر عام ١٩٥٦ ويسميه حينا « مغامرة السويس » وأحيانا « كارثة السويس » ، فيؤكد ان ماكميلان كان بين مجموعة الوزراء البريطانيين الذين كون منهم ايدن « الحلقة الداخلية » فكانوا يعقدون اجتماعاتهم الخاصة لتدبير حملة السويس من غير اشراك بقية الوزراء في هذه الاجتماعات . وعلى الرغم من ان ماكميلان كان في ذلك الوقت وزيرا للمالية ويدرك ادراكا تاما متاعب بريطانيا الاقتصادية وما تواجهه الخزانة العامة من أعباء ثقيلة ، وعلى الرغم من ادراكه التام لما تتطلبه مغامرة السويس من نفقات باهظة تنوء بحملها ميزانية الدولة ، لم يبد أى اعتراض على اجراءات انطونى ايدن ، بل كان يؤيدها كل التأييد .

ويقول ايمرى هيوز : ان جون ستراتشي ، في أثناء مناقشة أزمة السويس في مجلس العموم ، طلب الى ماكميلان الاعتراف بأن حملة السويس كانت سياسة خاطئة . . ترتبت عليها حملة عسكرية خاطئة . . موجهة الى أهداف خاطئة .

وقرر انيورين بيفان أن البريجادير «هيد» وزير الحرب السابق اتهم زملاءه الوزراء بأنهم وضعوا خطة حملة السويس وهم يعلمون أنها عملية انتحارية ، ثم فروا من الميدان قبل تنفيذها .

ويستخلص ايمرى هيوز من ذلك كله أن ماكميلان يتحمل نصيبه الكامل في حملة السويس المشئومة .

ويختتم المؤلف كتابه قائلا ، ان ما ذكره ليس كل شيء في حياة ماكميلان ، فهو لا يزال رئيسا للوزراء ، واذن فهو لا يزال الممثل الاول ، على المسرح السياسى في بريطانيا . ولكن ماكميلان حتى اليوم ، قد فشل في تحقيق هدفين حيويين ، لضمان مستقبل بريطانيا ، أولهما اعادة تنظيم اقتصادها لمواجهة الاخطار المقبلة ، وثانيهما تمكينها من دخول مشرف في النادى الذرى .

مقدمة المؤلف

حينما سئل برنارد : ما الذى حدا بك الى تأليف مسرحية عن جان دارك ؟ رد قائلا : لكى انقذها من قلم جون درنكووتر .

وانا لا أدعى أننى أخرجت هذا الكتاب عن هارولد ماكميلان لأنقذه من راندولف تشرشل . والواقع ان راندولف سهل الاثارة ، وقد تغريه قصتى هذه فيكتب ترجمة لحياة ماكميلان ، تلقى لنا ضوءا جديدا على مأساة السويس ، بل قد تفشى لنا كثيرا من الأسرار السياسية الهامة التى تنطوى عليها أضابير حزب المحافظين . ومن رأيى ان راندولف تشرشل قد ادى خدمة عامة بكتابة ترجمة لأنطونى ايدن ، واذا كان المحافظون فى مجلس العموم وفى الريف الانجليزى قد تصدوا للرد على راندولف تشرشل حينما كتب ترجمة انطونى ايدن ، فلا أظن انهم سوف يبدون كثيرا من التحمس اذا ما علموا ان راندولف سوف يكتب ترجمة لحياة هارولد ماكميلان . وعلى أية حال فسواء كتب راندولف ، أو غيره من المحافظين ، عن حياة ماكميلان ، فقد مهدت لهم الطريق وبذلك أصبحت مهمتهم سهلة ، ذلك لأننى جمعت المعلومات والمستندات التى تتطلبها الكتابة عن هذا الموضوع فى مجلد واحد هو ذلك الذى أضعه بين أيدى القراء .

أن كل رئيس وزراء فى بريطانيا يستحق أن تكتب عنه ترجمة وان لم يكن على شىء من الأهمية ، فهذه الترجمة تعتبر مرجعا للباحثين .

والواقع أن شخصية ماكميلان اكثر تعقيدا ، أمام كاتب التراجم ، من انطونى ايدن ، فهو رجل ذو شخصية متعددة الجوانب ، ولقد سألت مرة أحد الدبلوماسيين الأجانب : ما رأيك فى ماكميلان ؟ فأجاب : أى ماكميلان تقصد ؟ ذلك أن ماكميلان يتغير بتغير المواقف والظروف ، فيبدو لك فى شخصية لا عهد لك بها من قبل .

ومهما يكن من أمر فقد اقتصرت فى كتابى هذا على دراسة ماكميلان فى صورتين : الأولى صورة ماكميلان الشاب المحافظ الثائر على حزبه فى فترة ما قبل الحرب ، بما فيها من خروج على التقاليد الحزبية ، وما تتضمنه من محاولته وضع برنامج جديد لحزب المحافظين واقامته على أسس سياسية جديدة وتغيير نظرته العامة وهو فى هذا لم يوفق كثيرا . أما الصورة الأخرى فهى لماكميلان ، السياسى الناضج فى فترة ما بعد الحرب ، وقد أصبح زعيما ورئيسا للوزراء .

أما الصورة الأولى فهى تحظى بعطفى وتقديرى ، وأما الصورة الاخرى فهى مزيج من المحاسن والمساوىء ، وقد يعتبرها البعض سوء

تقدير سياسى ، وعلى أية حال فسوف يكتشفها القارىء الناقد فى أثناء تصفحه الكتاب .

وقد يصعب على محافظ ، سليم المبدأ ، أن يحاول كتابة ترجمة لهارولد ماكميلان ، فهو لا يكاد يقرأ بعض خطب ماكميلان أو كتاباته السابقة حتى يشك فى أنه من المحافظين .

والحقيقة التى تثير الدهشة هى : كيف انتهى الحال بماكميلان الى أن يصبح بين الجناح الأيمن من المحافظين ، على حد قول جريدة «التايمز» حينما تولى رياسة الوزارة . ولكن ماذا حدث ؟ ولماذا تنكر ماكميلان لمبادئه القديمة ؟ ولماذا اتجه اتجاها يمينيا وأصبح من المحافظين ، ولم يتجه الى اليسار ويصبح من العمال ؟

لو أن ماكميلان انضم الى العمال منذ شبابه فلا شك فى انه كان فى استطاعته ان يتولى زعامة حزب العمال . ولقد مرت به فترة أبدى فيها اهتماما جديا بهذا الحزب ، حتى لقد ظن الجناح اليسارى من العمال انه سوف ينضم اليهم انضماما عاجلا .

حينما وجه ماكميلان خطابا الى شباب المحافظين أبدى أنه فر خوفا من وجه كارل ماركس ، ولكن ماركس لم يكن فى ذلك الوقت غولا مفزعا ، كما لم يكن فى طريقه لزعامة العمال !

لقد وجهت الى عضو قديم من العمال فى مجلس العموم البريطانى سؤالا عن السبب فى أن ماكميلان — وقد وجد من المستحيل عليه ان يتخذ طريقا وسطا بين اليمين واليسار — فضل اليمين على اليسار : ورد على النائب العمالى قائلا : ان المسألة فى نظر ماكميلان لم تكن مسألة مبادىء ، بل مسألة طبقة ، وقد انحاز خطأ الى جانب المحافظين ولم يستطع التخلص منهم .

وهذا صحيح لأن ماكميلان حينما أصبح رئيسا للوزراء ، لم يعد زعيما حقيقيا لحزب المحافظين ، بل أسيرا لديه ، ورأسا سياسيا فارغا يتحدث باسم الحزب ومدافعا عن أصحاب الامتيازات الخاصة الذين كثيرا ما تحداهم ، وأصبحت خطاباته ثرثرة السياسى الذى يرمى ببصره الى الانتخابات القادمة ، بدلا من أن تكون برنامجا لرجل الاصلاح الذى يعمل لخدمة الأجيال القادمة .

والعمل الوحيد فى حياته ، كرئيس للوزراء ، أعنى العمل الذى يتسم بالشجاعة والاقدام هو رحلته الى الاتحاد السوفييتى للعمل على تخفيف حدة التوتر بين الشرق والغرب . لقد تجددت الآمال فى أوربا الغربية برحلته ، وحمدت الشعوب الغربية طالعها الموفق أن ظهر من بينها رجل يعمل حقا من أجل السلام ، ويضع حدا لسباق التسلح ويضع أسس اتفاقية مع الاتحاد السوفييتى تؤدى الى انهاء النزاع . ولكن هذه الآمال تبخرت ، اذ ان ماكميلان لم يجد لديه الشجاعة الكافية ولا القدرة على ابتكار سياسة دولية جديدة والعمل على تنفيذها فى عزم وتصميم . والفى ماكميلان نفسه أسيرا للسياسة الخارجية كما كان أسيرا للسياسة الداخلية .

كان ماكميلان قبل الحرب من أشد المعارضين لسياسة التهدئة ، ولكن لما أصبح رئيسا للوزراء لم يتردد فى اتباع سياسة التهدئة وتطبيقها فى معاملاته مع اعداء الشعب البريطانى الحقيقيين فى الجبهة الداخلية ، وهم كبار الرأسماليين وأصحاب الضياع الواسعة والشركات الكبرى . والمضاربون فى بورصة الأوراق المالية ، وقانصو الملكيات الصغيرة من أصحابها ، والفائزون بالعطاءات الكبرى .

ان حكومة المحافظين ، باصدارها قانون الايجارات الذى رفع القيمة الايجارية على الطبقة العاملة ، جعل بريطانيا نعيما للملاك وجحيما لملايين الكادحين من أبناء الشعب البريطانى .

ان ماكميلان قد رفع الايجارات ، والغى المعونة المالية للحاصلات الزراعية ، وزاد الرسوم الصحية ، وبذلك اضطر العمال الى المطالبة بزيادة الأجور ، مما أدى الى التضخم النقدى ومايتبعه حتما من أزمات مالية واقتصادية .

كذلك فان استسلام ماكميلان للمضاربين على المشروعات الفردية والهاربين من دفع الضرائب ، وفشله فى اعداد تخطيط للصناعة البريطانية واعادة تنظيمها لمواجهة الموقف الاقتصادى السريع التغير فى عالمنا الحديث ، جعل من المحال بناء هيكل اقتصادى سليم فى بريطانيا يضمن للشعب اطراد رفع مستوى المعيشة والرخاء الحقيقى فى المستقبل .

وفى حين أن العالم يتجه الآن اتجاها عاجلا نحو التكتل والاحتكارات الكبرى ، فان ماكميلان لا يزال يتحدث فى عبارات جوفاء عن المشروع الفردى ، ويرفض أن تفرض الدولة اشرافها على أصحاب المشروعات الكبرى لتضمن حقوق الشعب ضد هؤلاء الانتهازيين والاستغلاليين .

ولا يتسع المقام فى هذا الكتاب لشن حملة كاملة ضد ماكميلان وسجله الحافل بالتخاذل امام سادته الرأسماليين .

ولما فشل أخيرا راح يبحث عن ملجأ فى ظل السوق الأوربية المشتركة بعد أن عجز فى وضع خطة طويلة الأجل لمستقبل بريطانيا .

وعلى الرغم من ادراكه ان سباق التسلح يكلف بريطانيا ثمنا باهظا فقد أخذ يواصل التسلح ، ويبدد الأموال يمنة ويسرة على أسلحة أصبحت ، مع التطور ، عتيقة ، ويقامر على اسلحة جديدة عظيمة التكاليف مثل « صاروخ السهم الأزرق » ويبدد جهود العمال والفنيين والعلماء البريطانيين سعيا وراء انتاج رادع نووى بريطانى مستقل عن الاسلحة النووية الامريكية ، مفترضا أنه يجب على بريطانيا، فى العصر الذرى ، ان تعتمد على نفسها اذا ما خاضت غمار حرب ضد الاتحاد السوفييتى . وعلى الرغم من كل ذلك فبعد انتهاء خمس سنوات على توليه رياسة الوزارة البريطانية كان العسكريون أول من وجه النقد المر الى سياسته الدفاعية ، وطالبوه بادخال نظام التجنيد الاجبارى لتقوية القوات المسلحة البريطانية التى تعوزها الاسلحة الحديثة . وبخضوعه لأمريكا جعل بريطانيا تقف فى الصفوف الأولى اذا مانشبت

حرب نووية ، وبقبوله ان تكون بريطانيا قاعدة امريكية ، عرض البريطانيين الى اشد الأخطار مع أصغر قدر من الوقاية .

وفي حين كان كنيدى يطمئن الشعب الامريكي على أنه لا بد من اعداد ما يكفيه من المخابىء ضد الغارات النووية، نجد ماكميلان يعترف امام الشعب البريطاني بأنه لن يستطيع أن يوفر له المخابىء التى تقيه الاشعاع الذرى لأنه ليس لديه المال اللازم لذلك .

وانك لتقرأ تذييلا للكتاب الابيض الصادر عام ١٩٦٢ خاصا بشئون الدفاع البريطاني . وقد ورد فى هذا التذييل ان الحكومة البريطانية تفكر فى وضع برنامج لنقل الأمهات والأطفال وغيرهم ممن يستحقون قسطا اكبر من الرعاية ، من المراكز الكبرى المزدحمة بالسكان . اما أين يتم توزيع هؤلاء فهو ما لا يدريه أحد !

لقد بلغنا المرحلة التى ينبئنا فيها السير روبرت واطسون وات، مخترع الرادار ، أن قصة ذلك الرادع النووى الكبير تهديد لبقائنا ولبقاء الجنس البشرى بأجمعه .

وهذا الكتاب ليس نهاية القصة ، لأن هارولد ماكميلان لا يزال رئيسا للوزراء ، ولا يزال الممثل الاول على المسرح السياسى البريطاني، وان كانت الانتخابات الفرعية ، التى اجريت فى مارس ١٩٦٢ ، قد اثبتت أن المحافظين تهتز من تحتهم المقاعد ، وأن السياسة البريطانية فى بوتقة الصهر ، بل ان مستقبل بريطانيا كله ـ وليست سياسة بريطانيا فقط ـ معلق بخيط .

فقد تورطت بريطانيا فيما سماه ماكميلان « سباق التسلح النووى الرهيب » ولكن ليس هناك من الأدلة ما يشير الى أن بريطانيا قد حققت فوزا فى هذا السباق . أو انها فى الطريق لتحقيقه ، وهذا كله يجرى وسط أزمة خانقة مالية واقتصادية . ومن ناحية اخرى فنحن نجرى مفاوضات للانضمام الى السوق الاوربية المشتركة وهذا يعنى تطورا ثوريا فى اقتصادنا وفى حياتنا القومية .

ان ما يحدث لماكميلان يهمنا ، لأنه مرتبط بمصالحنا ، والواقع ان السياسة البريطانية أصبحت من الأهمية بدرجة لا عهد لنا بها من قبل .

ويبدو أن الفصول الأخيرة من حياة ماكميلان السياسية قد تؤدى بالشعب البريطاني الى خطر داهم ، واذا كان شباب المحافظين فى حاجة الى كتاب عن السياسة الحديثة ، فها هو ذا كتابى بين أيديهم، وعليهم أن يتعلموا منه اكبر قدر من رئيس وزرائهم وحياته السياسية، وكيف وصل الى منصبه الخطير وما فعله حينما تولى هذا المنصب .

ايمرى هيوز

١٧ مارس ١٩٦٢

فى الطريق الى انجلتره

تعرض أحد أعضاء مجلس العموم البريطانى ، ذات يوم ، للحديث عن جد ماكميلان ، فوقف هارولد ماكميلان ليعلن للمجلس أن جده كان اسكتلنديا فقيرا ، وانه نزح من مسقط رأسه فى اسكتلندة الى انجلترا سعيا وراء الرزق ، وقد كان من حقه أن يفعل ذلك . ولو ان الحكومة الانجليزية فى عصر الدكتور جونسون ، كانت قد أصدرت تشريعا يحرم على الاسكتلنديين الاقامة فى انجلترا ، كما فعلت حكومة ماكميلان ضد الايرلنديين وضد سكان جزر الهند الغربية وضد بقية أبناء الكومنولث ، لو كان ذلك قد تم لما استطاعت اسرة ماكميلان الاقامة فى لندن ، ولا ندرى اكان ذلك لخير انجلترا أم لشرها .

لقد كتب برنارد شو ، فى رسالة وجهها الى عام ١٩٤٦ يقول : نحن فى حاجة الى الاسكتلنديين ، لأنهم يفهمون الأمور السياسية فهما جيدا أما الانجليز فلم يكتمل نضجهم السياسى بعد . ولما كان شو ايرلنديا فهو رجل موضوعى ، والواقع انه منذ بداية القرن العشرين حتى وقتنا الحاضر ، تولى رياسة الوزارة البريطانية رجال من أصل اسكتلندى ، وهؤلاء هم : بلفور ، وكامبل بانرمان ، وبونار لو ، ورامزى ماكدونالد ، وأخيرا ماكميلان .

ولا ننسى فى هذا المقام الاعتراف بالفضل لبيت ماكميلان فى تثقيف الشعوب التى تتكلم الانجليزية ، فدار ماكميلان للنشر لم تقصر نشاطها على نشر أحسن المؤلفات الانجليزية ، بل انها زودت بقية العالم بكثير من المؤلفات الانجليزية ، وبذلك ساهمت مساهمة قوية فى نشر الأدب والثقافة والحضارة فى جميع أنحاء الارض . وقل أن تجد مكتبة انجليزية خاصة أو عامة ، الا وقد ساهمت دار ماكميلان فى تزويدها بعدد كبير من الكتب . والى هذه الدار يرجع جانب كبير من الفضل فى نشر طبعات رخيصة لمؤلفات شكسبير ، وميلتون ، وتنيسون ، وشارلس كنجزلى ، ولويس كارول ، وتوماس هاردى ، ورديارد كبلنج ، وغيرهم مما تجده مسجلا فى قوائم ماكميلان .

ويقول هارولد ماكميلان : اننى وشقيقى نعتمد الى حد كبير على ماخلفه لنا جدنا ، وأرجو أن يسعد أبناؤنا بما خلفناه لهم .

ولنذكر نبذة عن تاريخ أسرة ماكميلان ، فنقول ان دانيل ماكميلان مؤسس دار ماكميلان للنشر ولد عام ١٨١٣ ، فى جزيرة أران عند مصب نهر الكلايد . وكان جد دانيل مزارعا صغيرا يجمع الايجار من بقية الفلاحين ويقدمه الى صاحب الارض ، كما كان يزود هؤلاء الفلاحين بما يلزمهم من الحبوب . وكان هذا الرجل كثير العيال ، ولكن حدث وباء فى

اسكتلندة فمات بسببه كثير من ابنائه ، وهذا ماكان يصيب الفقراء كلما اجتاح البلاد وباء . ومن رسائل دانيل يتبين لنا أن الاسرة كانت تعانى أشد حالات الاملاق ، حتى لقد كانت أحيانا توشك أن تموت جوعا .

وهناك فيما خلفه لنا الشاعر الاسكتلندى ، روبرت بيرنز ، قصيدة تصور ماكان عليه الفلاحون فى هذه البلاد من تعاسة وبؤس ، حتى أن أحدهم يبدو لك وكأنه يجمع بين زهد النساك وشقاء الرقيق .

ولما كان ونكان ماكميلان كثير العيال فقد كانت مصيبته أشد ، وأصبح مجرد البقاء فى هذه الدنيا بالنسبة له سلسلة لانهاية لها من الكفاح المضنى وخاصة أن المالك لم يكن يرحم فلاحيه وأجراءه .

وقد كان فلاحو « أران » وهى مسقط رأس أسرة ماكميلان ، يفلحون أرضهم طبقا لعقود طويلة الاجل مع المالك ، ولكن حدث عام ١٨١٥ أن انتهت عقود الايجار القديمة ، فارتفعت الايجارات الجديدة وأصبح من المحال على كثير من العائلات مواصلة الاقامة ، فلم يكن بوسعهم الا الهجرة الى الولايات المتحدة وكندا والبلاد الاخرى فيما وراء البحار . وكان من بين من هجروا مسقط رأسهم ، والد دانيل ماكميلان ، فقد نزح الى مدينة ايرفين ليرعى أبقاره القليلة ويزرع قطعة صغيرة من الارض ويعمل فى نقل الفحم من المنجم الى المدينة .

وأخيرا مات الرجل من شدة الاعياء وسوء الغذاء والمرض ، ومن هنا أرسلت العائلة دانيل ماكميلان ليعمل فى دار صغيرة لتغليف الكتب وبيعها ، وظل يعمل فى الدار سبع سنين بأجر قدره شلن ونصف شلن فى الاسبوع .

وبعد أن تعلم دانيل فنه الجديد رحل الى جلاسجو ليعمل فى أحد محال بيع الكتب . ويصف دانيل هذه الفترة من حياته قائلا : كنت أواصل العمل من الصباح الباكر حتى وقت متأخر من الليل . كنت أبدأ عملى فى منتصف السابعة صباحا ولا أعود الى أهلى الا بعد العاشرة أو الحادية عشرة مساء ! حتى لقد هد الاجهاد قواى واعتلت صحتى .

وكان له صديق يدعى جيمس ماكلهوز يشتغل فى لندن ، فدعاه اليها كى يبحث عن عمل فى هذا البلد الكبير . وهكذا ولى دانيل ماكميلان وجهه شطر لندن ، وهناك أخذ يتردد على محال بيع الكتب باحثا عن عمل . وكثيرا ماكان دانيل ماكميلان يرتد خائبا فيجلس فوق رصيف الشارع باكيا بكاء حارا ويبتهل الى الله أن يفرج كربته . وأخيرا عمل فى مكتبة سيلى ، فى فليت ستريت ، بمرتب سنوى قدره ستون جنيها .

وفى لندن حضر اليه شقيقه واستطاعا ، ببعض مالديهما من المال وبمبلغ آخر اقترضاه ، أن ينشئا محلا لبيع الكتب فى كمبردج ، وقد تحول عملهما من بيع الكتب الى دار للنشر ، وما ان نمت الدار وازدهرت وبدأ دانيل يجنى ثمار كده وصراعه ضد الفقر والمرض ، حتى عاجلته منيته وهو فى سن الخامسة والاربعين . هذا وقد نشر توماس هيوز رسائل دانيل ماكميلان ، ومنها يتبين لنا أن هذا الرجل كان شجاعا قديرا قوى العزيمة الى حد كبير ، ولم يحظ الرجل بتعليم أكاديمى ،

ولكنه تعلم كثيرا فى مدرسة الحياة حتى لقد كان موضع تقدير رجال الادب المتازين الذين كانوا يعرفون له مواهبه وخلقه القوى .

وكان من بين أصدقائه القس فردريك دينسون ، وهو من زعماء الاشتراكية المسيحية ، كما كان الشاعر تشارلس كنجزلى من أصدقائه الحميمين .

وقد اكتشف آل ماكميلان أن كراهية الانجليز للاسكتلنديين لم تنته عند عصر الدكتور جونسون ، ولذلك كان من أول مطبوعاتهم رسالة فلسفية عنوانها : الاسئلة الثلاثة الكبرى : من أنا ؟ ومن أين جئت ؟ والى أين أذهب ؟ وحينما ذاعت الرسالة انبرى لونجمان ، وهو ناشر منافس لآل ماكميلان ، للرد عليها فقال : أما الجواب عن السؤال الاول فهو : انت اسكتلندى ، وأما عن السؤال الثانى فالجواب : انك قادم من بلاد آكلة الكعك ، وأما الرد على السؤال الثالث فهو : فلتذهب الى الشيطان !

ننتقل من دانيل ماكميلان ، جد صاحبنا رئيس الوزراء ، الى والده موريس كروفورد ماكميلان ، والى هذا الرجل يرجع الفضل فى انشاء فروع لدار ماكميلان فيما وراء البحار وبخاصة فى الهند .

ويحدثنا تشارلس مورجان فى كتابه « دار ماكميلان » وهو خير من كتب عن هذه الاسرة ونشاطها ، فيقول : ان دار ماكميلان استطاعت نشر كل مايلزم البلاد الواقعة فيما وراء البحار ، فنشرت كتبا مدرسية لابناء البوير فى جنوب افريقيا ؛ وباللغة السواحلية لابناء شرقى افريقيا ، وباللغة العربية للمصريين ؛ كما نشرت كتبا لابناء الصين واستراليا .

وقد تزوج موريس ماكميلان من هيلين بيلز ، وهى ابنة طبيب أمريكى من ولاية انديانا ، وأنجب الزوجان هارولد ماكميلان ، رئيس الوزراء الحالى ، الذى ولد فى لندن يوم ١٠ فبراير عام ١٨٩٤ .

ايتون ـ اكسفورد ـ العمل فى الحرس الملكى

الاشتغال بالسياسة

نشأ هارولد فى بيئة تختلف تمام الاختلاف عن بيئة جده ، فقد كان أبواه على درجة كبيرة من الثراء بحيث استطاعا أن يهيئا له تعليما راقيا كما هيئا له الفرصة التى تتاح لابناء الطبقة الارستوقراطية وأبناء الاثرياء من الطبقة الوسطى .

وقد ظل هارولد خمس سنوات فى كلية ايتون بين أبناء الامراء والدوقات واللوردات وغيرهم من أبناء العائلات الكريمة وذوى الثراء .

وفى هذه الكلية يتلقى الطلاب العلوم التى تؤهلهم للمناصب القيادية ولأن يكونوا فى المستقبل حكاما فى بلادهم وفى بلاد الامبراطورية الواسعة

وكانت والدة هارولد تتحدث الفرنسية ولذلك استطاع عن طريقها ، أن يتعلم الفرنسية وأن يتحدثها بطلاقة .

وقد انتقل هارولد من ايتون الى كلية باليول فى اكسفورد ، وهناك استطاع بذكائه وكفايته أن يمتاز بين أقرانه . وفى أثناء الحرب العالمية الاولى التحق بفرقة الحرس ، ورقى الى رتبة « كابتن » وقد أصيب ثلاث مرات ومنح وسام الصليب العسكرى تقديرا لشجاعته . وبعد الحرب أصبح ياورا لدوق ديفونشير ، الحاكم العام فى كندا .

وكانت هذه المناصب الرفيعة فى تلك الايام وقفا على كبار النبلاء ، واذ كان هارولد ياورا لدوق ديفونشير فقد أخذ يظهر بمظاهر النبل والسمو والشرف ، وهو وان لم ينحدر من أسرة نبيلة ، وعلى الرغم من أن الدم الازرق لايجرى فى عروقه ، فقد كان لطلعته الجميلة وطولهالفارع ومايحيطبه من عظمةوبهاء ، أثر كبير فى تكوين شخصيتهالارستوقراطية .

وأخيرا تزوج هارولد احدى بناتالدوق ، وكان زفافه اليها فرح الموسم فى لندن خصوصا وقد شرفت بحضورها الملكة الكسندرا والاميرة لويز ، كما حضره الكاتب العالمى توماس هاردى .

ولم يرق لهارولد أن يعود الى عمله فى الطباعة والنشر بعد أنارتقى الى مصاف الطبقة الارستوقراطية ، وهنا بدأ يفكر فى الاشتغالبالسياسة ولكن الى أين يتجه ؟ لقد كانت لديه جميع المؤهلات اللازمة لعضو محافظ فى مجلس العموم البريطانى ، فلديه الثراء ولديه الروابط بالاسر الارستوقراطية .. الخ .

ولا ضير فى أن يصبح ابن ناشر كتب نائبا محافظا ، فقد كان مجلس العموم حينذاك مليئا بأبناء الطبقة المتوسطة الغنية من أصحاب المناجم والمصانع وأحواض بناء السفن ، وبأبناء أولئك الذين جمعوا ثرواتهم من المضاربة فى البورصة .

وفى الانتخابات العامة فى ديسمبر ١٩٢٣ رشح حزب المحافظين هارولد لعضوية مجلس العموم عن دائرة ستوكتون . وفى هذه الدائرة بدأ صراع انتخابى عنيف بين هارولد ماكميلان ، عن المحافظين، والماجور ستيوارت ، عن الاحرار ، ومرشح ثالث للعمال . وقد فاز مرشح الاحرار على ماكميلان بأغلبية ٧٣ صوتا فقط .

وفى عام ١٩٢٤ أعيدت الانتخابات العامة ، بعد سقوط وزارةالعمال الاولى ، وفى هذه المرة فاز هارولد ماكميلان بعضوية مجلس العموم عن حزب المحافظين فى دائرة ستوكتون . وهكذا أصبح عضو برلمان فى سن الثلاثين وهنا بدأ حياته السياسية .

محافظ من الجناح اليساري

لايتصور أحد أن هارولد ماكميلان خاض غمار السياسة بالسهولة التى تنزلق بها صغار البط الى الماء ، فقد مضت خمسة أشهر على افتتاح الدورة البرلمانية قبل أن يلقى خطابه البرلمانى الاول . وقد كان ذلك حين نظر الميزانية يوم ٣٠ من ابريل ١٩٢٥ ، وكان وزير المالية حينذاك هو ونستون تشرشل الذى انتقل حديثا من صفوف الاحرار الى صفوف المحافظين . ولما عرض تشرشل مشروع الميزانية واجه نقدا شديدا من فيليب سنورن وزير المالية فى وزارة العمال المستقيلة . وباستثناء بند خاص بمعاشات الارامل ، كانت ميزانية تشرشل خالية من أى اتجاه نحو مساعدة المحتاجين ، بل انها كانت فى الواقع ميزانية « أثرياء المحافظين » .

ولما وقف هارولد ماكميلان لالقاء خطابه البرلمانى الاول ، وفد الكثيرون على مجلس العموم لسماع هذا الخطاب . وكانت بداية الخطاب عادية ، ككل خطاب برلمانى أول ، ولكن بعد قليل اندفع هارولد ، ليرد ردودا عنيفة على سنورن ويفند حججه تفنيدا منطقيا ، ثم أشار فى خطابه الى مشروع المعاهدة الروسية التى كانت من بين أسباب سقوط وزارة العمال . وأشار الى نداء ، كان رامزى ماكدونالد قد وجهه الى شباب المحافظين لينضموا تحت لوائه ، قائلا ان ماكدونالد لايفهم عقلية شباب المحافظين حتى لقد خيل اليه أنهم قليلو الخبرة ومن السهل اغراؤهم . وتحدث عن اشتراكية رامزى ماكدونالد ، فقال انها خليط عجيب من الماركسية ومن اشتراكية كوبدن وغيرها . وأخيرا طالب بتأييد مشروع الميزانية الذى قدمه تشرشل .

والمفهوم من خطاب هارولد ماكميلان انه لم يكن من المحافظين الرجعيين ، ولكنه تقدمى فى آرائه واتجاهه العام . ولقد أخذ هذا الشاب المحافظ التقدمى يتساءل : لم لايكون للمحافظين سياسة خاصة بالبطالة؟ ولماذا يظل حزب المحافظين حزب الرأسماليين الذين ينتزعون القوت من أفواه العمال الكادحين ؟

وقد شارك ماكميلان فى هذا الاتجاه عدد من شباب المحافظين ، فكونوا فريقا خاصا بهم وأخذوا يدرسون المشاكل الخاصة بالعمال وخصوصا مشكلة البطالة .

وفى عام ١٩٢٧ نشرت هذه الجماعة أول كتاب لها تحت اسم « الصناعة والدولة » وقد تضمن هذا الكتاب دعوة موجهة الى حزب المحافظين ، كى يتخذ له سياسة صناعية واضحة . وكانت تغلب على الكتاب ، فى بعض الاحيان ، اتجاهات الجمعية الفابية ، وكذلك اتجاهات الاتحاد المعارض للاشتراكية . ويستخلص من حياة هارولد ماكميلان البرلمانية بوجه عام ، فى الفترة من ١٩٢٤ الى ١٩٢٩ ، انه كان محافظا يساريا ، ولكن كان من الصعب حينذاك وضع تعريف دقيق واضح للمحافظ اليسارى . وفى عام ١٩٢٩ سقط فى الانتخابات العامة ، ثم

اعيد انتخابه عام ١٩٣١ وظل نائبا عن ستوكتون حتى عام ١٩٤٥ .

وفى هذه الفترة قام جيمس جونستون ، المندوب البرلمانى لصحيفة « يوركشير بوست » بوضع كتاب حلل فيه شخصية ماكميلان كعضو فى البرلمان . ولننقل للقارىء بعض ماكتبه جونستون :

ان الشباب المتحمس فى حزب المحافظين ، ذلك الشباب الذى يسعى الى الاصلاح الاجتماعى ، يطلق على جماعته من باب الفكاهة اسم « جمعية الشبان المسيحية » . ومن أبرز شخصيات هذه الجماعة الكابتن هارولد ماكميلان ، اذ أنه فى الحقيقة اكفأ المتحدثين باسم الجماعة وهو يمتاز بالاستقامة والاعتدال والاخلاص ، وهو فى موقفه البرلمانى يذكرنا بالمستر بونارلو .

والكابتن ماكميلان لديه قائمة طويلة من الاصلاحات الاجتماعية وهو يرى ان اعادة بناء المجتمع خير من « ترقيعه » . والمسائل التى تجتذبه أكثر من غيرها هى المسائل الخاصة بالبطالة ، والتنظيم الصناعى واعداد فئات الاجور بحيث تتناسب مع الاوضاع الاجتماعية والصناعية .

هكذا يبدو لنا ماكميلان فى أول حياته البرلمانية سياسيا طاهر الذيل نقى السريرة يسعى باخلاص لخدمة الجماهير ولم تفسده الحياة البرلمانية بعد .

وفى عام ١٩٣٣ نشر ماكميلان كتابا جديدا تحت عنوان « اعادة التنظيم ــ الدعوة الى سياسة قومية » . وهو يطالب فى كتابه هذا بوضع أسس جديدة للتنظيم الاقتصادى والاجتماعى بحيث تتلاءم مع الظروف المتغيرة فى عالم اليوم .

الاتجاه إلى التخطيط

هناك فصل عنوانه « الاتجاه نحو التخطيط » يقول ان فكر التخطيط أصبحت هى المسيطرة على الحكومات فيما يتعلق بالحياة التجارية والصناعية . ولم تجد هذه الفكرة رواجا بين العلماء وأصحاب النظريات فقط ، ولكن أخذ بها أرباب الصناعة أيضا ووجدوا فيها ضرورة لابد منها لاداء أعمالهم اليومية .

ويقول ماكميلان ، ردا على أولئك الذين يحلمون بالعودة الى الماضى ويثورون ضد أى اقتراح جديد بالتنظيم ، ان العالم قد تغير ، وان العودة الى القديم أصبحت مستحيلة من النواحى الفنية والسياسية والاقتصادية . ولم يكن التخطيط الجديد الذى يدعو اليه ماكميلان تخطيطا اشتراكيا ، ولكنه تخطيط مركزى يتم عن طريق اخضاع الانتاج الى توجيه سلطة مركزية بحيث يمتنع التكرار والازدواج بين مختلف الصناعات ، وكذلك يمتنع انتاج كميات تزيد كثيرا على حاجة الاستهلاك

وضرب مثلا لبرنامجه الاصلاحي : ما تم من انشاء لجنة الكهربا ، وقانون النقل بمدينة لندن . ولجنــة التسويق فكلها هيئــات يقوم عملها على التخطيط . ويتلخص برنامجه فيما يلى :

١ ــ الاعتراف بمبدأ التخطيط .

٢ ــ انشاء هيئــة مركزية للاشراف على الصناعة البريطــانية ، ووضع التخطيط اللازم لتنمية هذه الصناعة .

٣ ــ أن تقوم الدولة بوضع الخطوط العريضة للتخطيط الصناعى فى بريطانيا فتقيمه على أساسين : أحــدهما يستند الى الاحتــكارات الكبرى ، والآخر يقوم على أساس المنافع العامة .

وهذا البرنامج كان يبدو شديد التطرف فى تلك الايام ، حتى لقد قال عنه أحد المحافظين من أتباع المدرسة القديمة انه من منتصف الطريق نحو الاشتراكية .

وقد حدد هارولد ماكميلان ، فى كتابه ، وضع آرائه بين اليمينية واليسارية فقال : ان البرنامج الذى تضمنه كتابى هذا سوف يوصف من ناحية العناصر اليمينية بأنه « اشتراكية » ، وسوف تصفه العناصر اليسارية بأنه «فاشية» وهو فى الواقع ليس اشتراكيا ولا فاشيا ، وقد يقال انه تنظيم بيروقراطى يتناول كل مشروع فردى بالتعديل والتحديد ويفرض عليه القيود اللازمــة للاشراف على الاســعار والارباح والاجور والمرتبات والايجارات وكل ماتنطوى عليه عوامل التنــافس السوقية . وهذا أيضا غير صحيح . والواقع أن البرنامج بعيد كل البعد عن التدخل فى الحرية السياسية ، وهو ضد التغيير الثورى وجوهره التخطيط ، أى أن تسير عوامل الانتاج وفق نظام معين لايتعارض مع سلامة الاقتصاد القومى .

لقد وضع ماكميلان برنامجه هذا عام ١٩٣٣ وكان يريد به وضع خطة خمسية لبريطانيا ، مثل الخطــة الخمسية التى يضعها الاتحــاد السوفييتى ويجددها كلما انتهت مدتها ، ولو أنه لم يكن يقصد أن يسير التخطيط البريطانى وفق نظام التخطيط السوفييتى .

وعلى الرغم من اتهامه بالتطرف فى ذلك الوقت ، فانه حينما واجهت بريطانيا أزمة مالية واقتصــادية عنيفة عام ١٩٦١ وقف سلوين لويد ، وزير المالية حينذاك ، ليعلن ان بريطانيا يجب أن تسير على مبدأالتخطيط الاقتصادى ، وهنــا واجهه المحــافظون بالتهكم والسخرية من مبــدأ التخطيط ، ولم يدروا أن زعيمهم ، هارولد ماكميلان ، كان ينادى بهذا المبدأ منذ ثلاثين عاما مضت .

ويقول توماس جونز ، وهو الذى ظل فترة طويلة سكرتيرا لمجلس الوزراء البريطانى ، فى كتابه « يوميات ورسائل » انه قابل ماكميلان فى فبراير ١٩٣٣ على أثر عودته من زيارة لموسكو ، وكان ماكميلان يتحدث كأستاذ فى الاقتصاد ويعلن انه تأثر كثيرا بما شهده فى الاتحاد السوفييتى

وفى نوفمبر ١٩٣٤ فى أثناء مناقشة خطاب العرش ، القى ماكميلان خطابا طويلا ركز جهوده فيه على ايضاح مايعانيه سكان المناطق المنكوبة فى جنوب انجلترا من بؤس ، ووجه سؤاله الى وزير المالية ــ نيفيل تشمبرلين حينذاك ــ ليبين لمجلس العموم مافعلته الحكومة لهؤلاء المنكوبين وما اتخذته من اجراءات لتخفيف حدة البطالة .

وتحدث ماكميلان عن انتقال المراكز الصناعية من شمال انجلترا الى جنوبها ، وعزا ذلك الى أن الاجور فى الجنوب أقل مما هى عليه فى الشمال ، وأحوال العمال أسوأ ، ودعا الى دعم الحركة النقابية فى الجنوب وهى خطوة لم تكن متوقعة من نائب محافظ .

وفى أثناء الخطاب عرض ماكميلان للحديث عن موقف الرأى العام البريطانى من سياسة الدولة ، فقال ان فئة قليلة من أبناء الشعب ينتمون الى حزب المحافظين ، وفئة قليلة أخرى تنتمى الى حزب العمال ، وفئة ثالثة قليلة أيضا تنتمى الى حزب الاحرار ، ولكن جمهرة الشعب محرومة من الاشتراك فى الحكومة وفى توجيه سياسة الدولة .

وعلى الرغم من أن خطاب ماكميلان قوبل بالاستحسان من صفوف العمال والاحرار فقد عارضه المحافظون واعتبروه تغييرا ثوريا سابقا لاوانه .

وفى عام ١٩٣٥ أصدرت دار ماكميلان كتابا عنوانه « السنوات الخمس القادمة » وهو يتضمن مناقشات وبحوثا تدور حول المشاكل التى تواجهها بريطانيا . وقد اشترك فى البحوث كثير من الاحرار والعمال وعدد قليل جدا من المحافظين من بينهم هارولد ماكميلان الذى اشترك فى لجنة الصياغة ، وتضمن الكتاب كثيرا من الآراء التى كان يدعو اليها .

وقد تضمن الكتاب عدة موضوعات عن « التنظيم الصناعى » و « الصناعات الاشتراكية » وقد عارضه المحافظون بشدة وعنف ، فى حين رحب به الاشتراكيون .

التمرد على الحزب

بعد الانتخابات العامة ، التى أجريت عام ١٩٣٥ ، أصبح ماكميلان من أعنف الناقدين لسياسة الحكومة الائتلافية ، التى كان يرأسها ستانلى بولدوين .

وبعد نشوب الحرب الايطالية الحبشية صرح ماكميلان بأن عصبة الامم قد فشلت فى مهمتها ، ولكن هذا لايدعو بريطانيا الى التخلى عنها ، لان الشعب البريطانى أيد انشاء هذه الهيئة الدولية ولايزال يؤيد بقاءها .

وحينما تخلت الحكومة البريطانية عن مبدأ توقيع العقوبات على

ايطاليا عام ١٩٣٦ انضم ماكميلان الى النواب العمال فى التصويت ضد الحكومة ، وكان هو العضو المحافظ الوحيد الذى عارض الحكومة .

ومنذ ذلك اليوم اعتبره مراقبو حزب المحافظين من المتمردين على الحزب ، وظل فترة يعمل بصفته عضوا محافظا مستقلا ، وكان يؤيد تشرشل فى حملته ضد تشمبرلين ، وكان يصرح بأن من النفاق وصف اتفاقية ميونيخ بأنها « سلام عن طريق المفاوضات » .

وفى نوفمبر ١٩٣٨ انضم الى تشرشل فى التصويت ضد الحكومة حينما رفضت انشاء وزارة للتموين استجابة لرغبة تشرشل .

وفى اكتوبر ١٩٣٨ أجريت انتخابات فرعية فى اكسفورد ، وكان مرشح المحافظين فيها اللورد هيلشام ومعارضه اللورد لندساى ، وقد وقف ماكميلان يؤيد لندساى ضد هيلشام ، مرشح حزبه . وقد اعتبرت تصريحات ماكميلان من انه سوف يؤيد معارض الحكومة ، وماقام به من تأييد عملى لهذا المرشح ، كأنها اعلان صريح لخروجه على حزب المحافظين الذى ينتمى اليه ، ولكن الحزب لم يتخذ ضده أى اجراء ، ولعله فضل المهادنة على اثارة المتاعب .

وكان بين ماكميلان وتشمبرلين ود مفقود ، وكان تشمبرلين يشير اليه فى مذكراته بعبارات عنيفة مقتضبة ، ويعتبره فى مجلس العموم المتحدث باسم جماعة « مثيرى الشغب » الذين يطالبون ببرنامج بريطانى يشابه برنامج « النظام الجديد » الذى أعده روزفلت لتوسيع دائرة الخدمات الاجتماعية فى الولايات المتحدة .

وعلى أية حال فان ماكميلان كان يعتبر عضويته فى البرلمان وكالة من الشعب ، وكانت هذه الوكالة فى نظره أهم بكثير من الولاء الحزبى .

الطريق الوسط

فى عام ١٩٣٨ أخرج ماكميلان كتابا آخر تحت عنوان « الطريق الوسط » وكان هذا الكتاب تلخيصا لآرائه فى المسائل الاجتماعية والاقتصادية ، وهى الآراء التى دعا اليها كثيرا فى مجلس العموم . وكان من أهم ما وجه اليه عنايته حالة الفقر والبطالة التى سادت بريطانيا فى ثلاثينات القرن الحالى وبخاصة انه قد قرأ كثيرا من مؤلفات كينز وبويد أور ، وزيبوم راونترى . والاتجاه الغالب على الآراء التى تضمنها كتاب « الطريق الوسط » هو البحث عن علاج للبطالة والفقر ، بشرط ألا يكون علاجا شيوعيا ولا فاشيا ولا اشتراكيا ولا رأسماليا ، بل طريقا وسطا بين مختلف الاتجاهات المتعارضة . وقد احتوى الكتاب على فقرات تجعل عضو البرلمان المحافظ فى حيرة من أمر ماكميلان : هل هو راديكالى من اتباع لويد جورج ؟ أو انه من أنصار الاشتراكية الفابية ؟ وكان

الاشتراكيون على النقيض من ذلك ، اذ لم يروا فيما عرضه من آراء الا انه غارق فى النزعة المحافظة من قمة رأسه الى أخمص قدمه • وهناك فقرات أخرى فى كتابه وبخاصة تلك الفقرات المتعلقة بمسائل التعليم والدخل ، تشعرك بأنه ثائر على الفوارق الطبقية ، وانه يطالب بالغاء المدارس الخاصة بأبناء الطبقات المتميزة بنشأتها وثرائها • كذلك كان يتجه فى كتابه الى المطالبة بتخطيط صناعى كامل بدلا من التخطيط الجزئى •

وفى ختام كتابه كتب فصلا تحت عنوان «المشروعات العامة والخاصة» قرر فيه ان الاتجاه العام يسير نحو الادماج ، وأن التعاون سوف يحل محل المنافسة غير المقيدة • وتطور فى تفكيره فدعا الى اعداد تنظيم شامل لتوزيع الاغذية الاساسية ، بحيث يلغى الوسطاء بين المنتج والمستهلك ، وتشرف هيئة قومية على توزيع اللبن وغيره من الاغذية الاساسية على الأسر الفقيرة سواء كان رب الأسرة عاملا أو عاطلا • وهو هنا يقول :

ان اللبن والزبد والمسلى الصناعى والجبن والبيض والخبز والدقيق والبطاطس والسكر ، سلع يجب أن ينظم توزيعها ، لأنها تدخل تحت باب « المنافع العامة » •

وعلى الرغم من تصريحات ماكميلان المتكررة بأن أراءه بعيدة عن الاشتراكية فان المحافظين لم يكن فى وسعهم الا الاعتراف بأنه قد ذهب شوطا بعيدا فى الطريق الاشتراكى ، بل ان كارل ماركس لو كان حيا لرحب بآراء ماكميلان فى الاصلاح الاجتماعى والاقتصادى •

وكل من قرأ « الطريق الوسط » الذى أخرجه ماكميلان عام ١٩٣٨ لابد أن يعتقد أن ماكميلان سوف ينتهى به المطاف الى أن يصبح رئيس وزراء اشتراكيا • ولم يكن ماكميلان من العاطفين على حزب العمال ، ولكن خطبه ومقالاته وكتبه جعلت الكثيرين من أولئك الذين يعيشون عند مستوى الكفاف يهرعون الى الاجتماعات التى يعقدها فى دائرته الانتخابية ليروا ماذا هو فاعل لتخفيف بؤسهم •

ومن المؤكد ان ماكميلان لم يقبل ان يدين بالاشتراكية كفلسفة ومبدأ ولكنه لم يتخذ موقفا عنيفا ضد دعاة الاشتراكية ، مثل موقف « الاتحاد المعارض للاشتراكية » • ولقد خرج من دراساته الكثيرة بأن المجتمع الرأسمالى مجتمع ضعيف البناء ، كما أن الفابية يعتورها كثير من النقص •

وقبل أن نختتم هذا الفصل لابد من الاعتراف بأن ماكميلان لم يكن قبل الحرب العالمية الثانية ، يخشى الاشتراكية ، ولكن بعد عام واحد جاءت الحرب وبقدومها انتهى ماكميلان من عهد التفكير المجرد والنظريات •

الحرب - ومابعدها

فى أثناء الحرب الروسية الفنلندية ذهب ماكميلان الى فنلندة، وبعد عودته القى فى مجلس العموم خطابا مستفيضا عمـــا شاهده فى رحلته . ووجه نقده الى الحكومة لانها لم تقدم الى فنلنده قدرا كافيـا من المعونة المادية . وكان قد أرسل ، فى أثناء وجوده فى هلسنكى برقية الى الحكومة البريطانية مطالبا بارسال شحنة من البنادق ، ولكن حكومة بلاده تباطأت فى اجابة طلبه ، وقد علق على ذلك قائلا : ان هزيمة الفنلنديين ترجع فى الغالب الى نقص الاسلحة ، ولا ندرى بالتحقيق ماذا كان يحتمل أن تكون النتيجة لو أن الحكومة البريطانية أرسلت حملة الى هذه البلاد ، ولكن المهم أن حادثة فنلنده ألقت ضوءا قويا على مافى الحكومة البريطانية من ضعف وتردد وغموض فى الاتجاه وجهل بالأهداف . وقد وجه نقـده العنيف الى تشمبرلين ، الذى ظل ملازما للصمت فى أثناء القاء ماكميلان لخطابه ولكن ما ان انتهى ماكميلان من القاء خطابه حتى وقف تشمبرلين للرد عليه واتهمه بتقديم معلومات خاطئة للمجلس . ولما سقطت وزارة تشمبرلين وتولى تشرشل رياسة الوزارة ، أعطى ماكميلان منصبا وزاريا بأن عينه سكرتيرا برلمانيـــا لوزارة التموين ، وبعد عامين عينه وكيـــلا لوزارة المستعمرات . وحينما نزلت قوات الحلفاء فى الجزائر ، عين وزيرا بريطانيا مقيما فى مركز قيادة الحلفاء فى شمال أفريقيا ، وذلك فى أواخر عام ١٩٤٢ . وقد ظل ماكميلان يشغل هذا المنصب ثلاث سنوات كان فى خلالها على صلة وثيقة بالجنرال ايزنهاور فى أثناء حملة الحلفاء على ايطاليا .

وفى شمال أفريقيا تعرف ماكميلان بديجول . وقد كتب ديجول فى يومياته بتاريخ ١٧ مارس ١٩٤٣ يقول :

ان ماكميلان ثائر ، يطالب جميع الفرنسيين بالاتحـــاد تحت لواء الجنرال جيرو ، وفى خلال احدى نوبات ثورته صـــاح قائلا : اذا رفض الجنرال ديجول اليد الممتدة اليه ، فيجب عليه ان يعلم أن أمريكا وبريطانيا العظمى سوف تتخليان عنه وبذلك يصبح وكأنه لاشىء .

وقد شهد ماكميلان بعد ذلك توقيع الهدنة الايطالية ورافق أعضاء مركز قيادة الحلفاء فى شمال أفريقيا حين سفرهم الى ايطاليا ، وأصبح قائما بأعمال رئيس لجنة الحلفاء فى ايطاليا . وفى أثناء الحرب الاهلية فى اليونان أرسلته حكومته الى هذه البـــلاد ليكون وسيطا بين الاحزاب اليونانية .

وفى عام ١٩٤٥ أجريت الانتخابات العامة فى بريطانيـا ، وهزم ماكميلان فى دائرته الانتخابية أمام مرشح العمال ، ولكن حزب المحافظين بسط له كلتا يديه ، ومنذ ذلك الحين لم يعد فى نظر حزبه « البرلمانى الثائر » .

ولما تولت وزارة العمال الحكم ، رأى تشرشل أن ماكميلان خير من يقوم بتنظيم معارضة المحافظين ضد حكومة العمـــال ، ولذلك رشحه فى

دائرة بروملى ، التى كانت مضمونة للمحافظين ، وتخلى عن دائرته القديمة « ستوكتون » وما أن فاز ماكميلان بمقعده فى البرلمان حتى جلس فى الصفوف الامامية للمحافظين •

وفى أول خطاب له فى المجلس الجديد أبدى دهشته من أن يرى زملاءه القدامى فى مقاعد الوزراء ، فهناك أنيورين بيفان بجانب آتلى ، وارنست بيفن بجانب شنويل • يالها من مفارقات ان تجلس الذئاب بجانب الحملان !

وهنا يتنبأ ماكميلان بما سوف تتمخض عنه الايام فيقول انه يشك كثيرا فيما سوف تكون عليه النهاية •

لقد كان البرنامج الاساسى لحكومة العمال يدور حول تأميم الصناعات الرئيسية ، وهو أيضا كان قد نادى من قبل بأنه يتطلع الى اليوم الذى يرى فيه هذه الصناعات منافع عامة • ترى ، هل لا يزال ماكميلان متمسكا بمبدئه القديم الذى يرجع الى فترة ماقبل الحرب العالمية الثانية ؟ •

هذا أمر مستبعد • فماكميلان الآن ليس سيد نفسه ، لقد كان فى الماضى يتخذ مقعده البرلمانى فى الصفوف الخلفية ليعبر عن رأيه فى حرية وانطلاق ، ولكنه اليوم فى المقاعد الأمامية لحزب المحافظين ، واذن فعليه أن يقف من حكومة العمال موقف المعارضة بكل الوسائل الممكنة • ولقد أحس أعضاء مجلس العموم بما طرأ عليه من تغيير • فقد كان من قبل يقود حملة اصلاح لبناء مجتمع بريطانى جديد ، أما اليوم فقد انتهت حملته وتخلى عن المجاهدين ليعمل مع المرتزقة .

وحينما عرض مشروع قانون تأميم صناعة الفحم على مجلس العموم للقراءة الثانية ، وقف ماكميلان ناطقا باسم المحافظين •

وفى اليوم التالى أخذ أصحاب مناجم الفحم وكبار رجال الأعمال ورجال بورصة الأوراق المالية يقرأون الصحف فى لهفة ليعرفوا ما تم فى أثناء الجلسة البرلمانية ، ولكنهم اطمأنوا الى ماقاله ماكميلان ، وأدركوا ان حزب المحافظين لم يخذلهم •

وفى ٢٨ أبريل سنة ١٩٤٧ تكلم ماكميلان باسم المحافظين فى اثناء مناقشته مشروع تأميم النقل فى اللجنة البرلمانية ، فأيد المشروعات الفردية وعارض التأميم !

هكذا أصبح ماكميلان المتحدث من المقاعد الأمامية باسم المحافظين ، ولقد اتخذ أسلوبا خطابيا يذكرنا بعهد جلادستون ، فهو يضع كلتا يديه على ثنية سترته ، ويلتفت الى المقاعد الخلفية فى انتظار الاستحسان والتأييد ويرفع صوته حتى ليتردد صداه فى ارجاء دار البرلمان ، ثم يهبط به وكأنه الهمس الخافت • وهكذا ينتقل من حركة تمثيلية الى أخرى بدقة وانتظام حتى ليخيل اليك أنه قضى الساعات الطوال ، فى الليلة السابقة

وأقفا أمام المرآة يستعرض ما سوف يقوم به من حركات تمثيلية فى اليوم التالى ٠

لقد بدأت المعارضة تشك فى اخلاصه وفى أنه يعبر عما يعتقده ، اما الصحفيون البرلمانيون فقد أدركوا أنه يحاول تقليد تشرشل فى شبابه ٠

نحو الحرب الباردة

كان ماكميلان يتغيب كثيرا من مجلس العموم فى هذه السنين ، وغالبا ما كان يقوم بزيارات للبلاد الأوروبية بسبب المحادثات الخاصة بالمجلس الأوروبى ، وقد ساعد تشرشل فى تنظيم «حركة أوروبا المتحدة» كما أنه كان مندوبا بريطانيا فى المؤتمر الاوربى المنعقد فى لاهاى بتاريخ مايو ١٩٤٨ ٠ وقد ظل عضوا فى المجلس المشترك لاوربا المتحدة ورئيسا للجنة المركزية ولجنة شرق أوربا ٠ وفى عامى ١٩٤٩ ، ١٩٥٠ وأوائل عام ١٩٥١ كان أحد مندوبى بريطانيا فى الجمعية الاستشارية للمجلس الاوربى ٠

وظل يبدى اهتماما كبيرا بالاتجاهات والحركات الخاصة بمستقبل أوربا ، والتى تبلورت فى معاهدة روما وانشاء السوق المشتركة ٠

وقد كان ماكميلان يبدى تشاؤمه من مستقبل أوربا ٠ وقد أبلغ مرة هيو والتون قائلا : أعتقد أن أوربا قد انتهى أمرها ، ولو كنت شابا لهاجرت من أوربا الى الولايات المتحدة .

وفى احدى المناقشات ، التى جرت فى مجلس العموم بتاريخ ٢٣ مارس ١٩٤٩ القى ماكميلان كلمة المعارضة باسم حزب المحافظين ، وكان يحبذ بشدة مواصلة الحرب الباردة ضد الاتحاد السوفييتى ، كما عارض فى تقوية العلاقات التجارية مع دول أوربا الشرقية ٠ وكان يوجه خطابه الى المجلس قائلا : لا تحاولوا تعزيز علاقاتكم بدول أوربا الشرقية ، اذ لافائدة ترجى من وراء ذلك ٠ ولا تقدموا لهذه البلاد البنادق لتأخذوا الزبد بدلا منها. واذا أردتم تبادلا تجاريا فابحثوا عنه فى بلاد الدومنيون وفى بلاد الامبراطورية البريطانية ٠ وفى المستعمرات وفى أوربا الغربية ، وبالجملة فى كل ما يقع غرب الستار الحديدى ٠

وحينما ضرب السوفييت حصارا حول برلين ٠ واضطر الغرب الى نقل الاغذية الى برلين المحصورة عن طريق الجو لم يرض ماكميلان عن هذه السياسة ، واعتبرها مظهرا للضعف ، وكان من رأيه اما استخدام القوة المسلحة ، واما المقاطعة الاقتصادية ٠

ونحن لا ندرى علام كان يستند ماكميلان فى دعواه حينما قال ان القوة المسلحة كانت خير اجراء يتخذ ضد روسيا ؟ وهل كان يعنى مايقول؟ وهل لو كان وزيرا للخارجية لفعل ذلك وتحمل مسئولية مايترتب

على هذا الاجراء ؟ وهل كان يرى أنه لامانع من خوض غمار حرب من أجل برلين ؟ يبدو أن ماكميلان كان يجهل حقائق الموقف حينذاك ، كما أنه أخطأ تقدير موقف الاتحاد السوفيتى فى أوربا ، وهكذا كان اتهامه لحكومة العمال بالضعف عملا يدل على عدم تقدير المسئولية • لقد زار موسكو بعد ذلك بعشرة أعوام ، وشهد بنفسه كيف أن الغرب لم يتقدم الى الامام خطوة واحدة على الرغم من مرور فترة طويلة من الحرب الباردة ، حتى لقد اعترف أخيرا بأنه لابد من وضع حد لهذه الحرب •

وحينما القى تشرشل خطابه المشهور فى فالتون بالولايات المتحدة ، ذلك الخطاب الذى اعتبره الاتحاد السوفييتى بداية الحرب الباردة ، رحب ماكميلان كثيرا بهذا الخطاب واعتبره عين الحكمة والصواب ، ولكنه حينما تولى رياسة الوزارة بعد ذلك بعشر سنوات صرح بأن من الحكمة ، التريث والصبر والاحتمال ، وأنه يفضل أن يكون حكما بين أمريكا والاتحاد السوفييتى من أن يشترك فى هذه الحرب الباردة . وأعرب عن أمله فى أن تطرح للبحث السياسة التى رسمت خطوطها فى فالتون ، وكذلك حلف الاطلنطى وسباق التسلح ، لأن هذه الاتجاهات سوف تؤدى بالعالم الى كارثة حرب عالمية ثالثة •

واذا ماعرضنا لموقف ماكميلان من العلاقات بين بريطانيا وأوربا نراه يحبذ الارتباط مع أوربا ، ولكنه يتحفظ قائلا : لا أعتقد أن فى استطاعتنا أن نقوم بدورنا فى أوربا بصفتنا الشخصية فقط ، أى بصفتنا شعب وحكومة المملكة المتحدة . فنحن مركز الكومنولث والامبراطورية ، واذن فارتباطنا مع أوربا يكون على أساس هذه العلاقات •

والنتيجة التى تؤخذ من آراء ماكميلان هذه ، هى أنه لو خير بين أوربا والكومنولث لما تردد فى اختيار الكومنولث •

وفى ١٤ فبراير سنة ١٩٥١ قاد هجوما شنته المعارضة على حكومة العمال بسبب سياستها الدفاعية ، وكانت حكومة العمال قد أعدت برنامجا واسعا للتسلح ، وقدم شنويل ، وزير الدفاع العمالى الى مجلس العموم تقديرات لميزانية الدفاع بلغت ١٥٠٠ مليون جنيه استرلينى موزعة على ثلاث سنوات .

وقد وقع الاختيار على ماكميلان ليتحدث باسم المعارضة فى أثناء الرد على مشروع ميزانية الدفاع • ولم يعترض ماكميلان على تقديرات الميزانية التى قدمها الوزير العمالى ، ولكنه عاب على حكومة العمال معارضتها لمشروع تعزيز الدفاع المدنى ، كما طالب بانتاج عدد كبير من القاذفات على أن يتم ذلك بعيدا عن منطقة الخطر ، وليكن فى الولايات المتحدة أو فى احدى بلاد الكومنولث •

ويستخلص من خطاب ماكميلان أن المحافظين كانوا يريدون تعزيز القوات المسلحة الثلاث ، ولذلك فهم يطالبون بميزانية دفاع أضخم من تلك التى قدمها شنويل • والغريب أن برنامج الدفاع الضخم ، الذى أعده العمال ، بالاضافة الى الحرب الكورية ، أثقلا كاهل الميزانية فارتفعت الأسعار الى حد كبير ، وتطور الموقف الى أزمة مالية حادة •

وعلى الرغم من موافقة المحافظين التامة على تعـــزيز الدفاع وعلى الاشتراك القوى فى الحرب الكورية ، فقـــد أخذوا حين حدثت الازمة يندددون بحكومة العمال ويقولون ان أســـباب الازمة هى عدم كفاية هذه الحكومة وتخبطها فى سياستها وتنفيذها لبرنامج التأميم وظل ماكميلان الى عدة سنوات فيما بعد ، كلما تحدث عن حكومة العمال ، أعلن للمـلأ أنهم هم الذين دفعوا بالبـــلاد الى هاوية الافلاس • ولما سقطت حكومة العمال وتولى تشرشل رياســة الوزارة عين ماكميلان فى منصب وزير الصحة فى وزارته الجديدة •

برنامج الاسكان

حين كتب ايان ماكلويد ترجمة لنيفيل تشمبرلين قارن أعمال هارولد ماكميلان فى وزارة الصحة والحكم المحلى بعد الحرب بأعمال نيفيل تشمبرلين فى هذه الوزارة فى فترة ما قبل الحرب ، ولكن كـــاتب الترجمة نسى أو تناسى حقيقة هامة وهى أن تشمبرلين ليس صاحب الفضــل فى برنامج الاسكان ، اذ أن هـــذا البرنامج كان قد أعده من قبل جون هويلتى ، الوزير العمالى للصحة والاسكان فى وزارة العمال التى تولت الحكم عام ١٩٢٤ • واذا كان تشمبرلين قد وجد أمامه برنامج هويتلى معدا فنفذه فان ماكميلان وجد أمامه أيضا برنامجا للاسكان أعدته حكومة العمال فى الفترة التى تولت فيها الحكم من ١٩٤٥ الى ١٩٥١ ، وان كان لماكميلان بعض الفضل فهو فى تنفيذ البرنامج لا فى اعداده •

ولما كان ماكميلان يعلم أن التنفيذ الكامل لبرنامج الاسكان سوف يكون تحديا لأصحاب المشروعات الفردية الكبرى والملاك وكبار المضاربين فى البورصة ، ولذلك لم يشأ أن يذهب فى تنفيذ مشروعه الى الحد الذى يعترض مصالح تلك الفئات التى كان حريصا على ارضائها ، ولذلك ففى التشريعات الخاصة بالاسكان أدخل كل المواد اللازمة لحماية مصالح هذه الفئات ، وعمل على ارضائهم بجميع الوسائل الممكنة ، وفى حين كان يلقى خطبا نارية فى السياسة الخارجية ضد المهادنة كانت سياسته الداخلية كلها استرضاء لطبقة أصحاب المصالح !

وهكذا تبين أن قانون الايجارات ، الذى أعده ماكميلان وهو وزير للاسكان ، كان أكبر ترضية للملاك على حساب الـــكادحين من الطبقة العاملة •

ومن ناحية أخرى فان حملة الدعاية التى قام بها ماكميلان وأكد فيها للشعب البريطانى انه سوف يحل مشكلة الاسكان، أصبحت مجرد وعود جوفاء ، ففى عام ١٩٥٥ وضعت الحكومة البريطانية خطة خمسية لازالة (العشش) ، وكان المشروع يقضى بازالة ٣٧٨ الف عشة حتى عام ١٩٦٠ وبعد أن مرت السنوات الخمس ظهر أن الخطة باءت بالفشل ففى

خين كان المقرر هو ازالة ٧٥ ألف عشة كل سنة لم تستطع الحكومة الا ازالة ٥٢ الف (عشة) فقط ، أى ان العجز فى نهـاية ١٩٦٠ كان ١٢٣ الف (عشة) .

واذا قارنا ما حققه مشروع الاسكان فى بريطانيا بمثيله فى كل من فرنسا وهولنده والنرويج والسويد والمانيا الغربية فى الفترة من ١٩٥٨ الى ١٩٦٠ تبين لنا مايلى:

تقدمت مشروعات الاسكان فى فرنسا بمعدل ٦ر٢٠ مسـكن لكل الف من السكان ، وفى هولنده بمعدل ٩ر٢٢ فى كل الف ، وفى النرويج بمعدل ٥ر٢٢ فى الالف ، وفى السويد بمعدل ٨ر٢٦ فى الألف وفى المانيا الغربية بمعدل ٥ر٣٠ فى الالف ، أما فى بريطانيا فان تقـدم مشروعات الاسكان لم يزد على ٨ر١٦ مسكن لكل الف من السكان .

ومن هنا يتبين لنا مدى نجاح حملة الاسكان التىأعلنها ماكميلان .

ولما استقال اللورد الـكسندر من وزارة الدفاع ، وقع اختيـار تشرشل على ماكميلان ليخلفه فى هذه الوزارة .

ظـل القنبلة

كانت أول جملة تضمنها الكتاب الابيض ، الذى قدمه ماكميلان الى مجلس العمـوم فى مارس ١٩٥٥ ، بصفته وزيرا للدفاع ، هى الجملة التالية :

ان ظهور القنبلة الهيدروجينية عام ١٩٥٤ قد غطى على كل ماعداه من أحداث سابقة . وبظهورها تبرز أمامنا مشكلات جديدة من نوع ثورى يتطلب حلها الشجاعة وسعة الأفق .

وكانت هـذه الجملة أشد عبـارات الكتاب الابيض اثارة للفزع والتشاؤم ، بل هى أهم جملة خطها قلم ماكميلان .

وتلت هذه العبارة فقرة طويلة عن الاسلحة النـووية وكيف نشأت وتطورت ، ثم ما أجرته الولايات المتحدة من تجارب حرارية نووية ، وقال ان أمريكا تعمل جاهدة لانتاج أكبر كمية من هذه الاسلحة النووية الخطيرة، وان الاتحاد السوفيتى يقتفى أثرها فى هذا الميدان .

وهنا استدرك قائلا : نحن لاندرى متى يستطيع الاتحاد السوفيتى انتاج أسلحة حرارية نووية يمكن استخدامها فى العمليات الحربية .

وجاء فى الكتاب الابيض :

« ان المملكة المتحدة لديها القدرة على انتاج مثل هذا السلاح . وبعد

أن بحثت الحكومة كل الملابسات التى تحيط بهذا الموضوع رأت من واجبها أن تبدأ بصنع هذه القنبلة الخطيرة وانتاج كميات منها » ٠

من هنا يتضح ان حكومة ماكميلان قد ألزمتنا باتباع استراتيجية القنبلة الهيدروجينيه ، ولقد أبلغنا الخبراء عن مدى القوة التدميرية لهذه القنبلة الفائقة فى قوتها ، وأدركنا أنها أضعاف أضعاف قوة القنبلة الذرية التى ألقيت على ناجازاكى أو هيروشيما عام ١٩٤٥ ، وليست هناك حدود علمية ولا فنية تحول دون انتاج أسلحة نووية أشد فتكا وتدميرا ٠

والى القارىء بعض ما قيل عن القوة التدميرية لهذه الاسلحة :

« اذا استخدمت هذه الاسلحة فى الحرب فانها تسبب فناء الانسان والمادة كلها على نطاق لا يتصـوره العقـل ٠ واذا ما فجرت القنبـلة الهيدروجينية فى الجو فان قوة التفجير والحرارة المنبعثة منه سوف تدمر منطقة واسعة حولها ٠ واذا فجرت على الارض فان التدمير وقوة التفجير قد يكونان أقل من ذلك نسبيا ولكن هنا آثار خطيرة جدا غير مباشرة ، ذلك أن الهواء سوف يمتص كميات كبيرة من جزئيات الذرة ، وبعد فترة تهبط بعض هذه الجزئيات الذرية على المنطقة التى تم فيها التفجير ، ولكن جانبا كبيرا منها سوف يحمله الهواء الى جهات أخرى ثم يهبط به على الارض على صورة اشعاعات نووية ٠

وتركز الاشعاع النـووى على منطقة ما ، سـوف يعرض كل من بالمنطقة ، ممن لا يلجأون الى المخابىء الذرية ، لموت محقق فى كل المنطقة التى يتركز فيها الاشعاع ، ويقل الخطر تدريجيا كلما ابتعدنا عن منطقة التركز ٠ ومن هنا يتبين أن بعض المناطق سوف يصيبها التدمير التام ، وأن بعض المناطق الاخرى سوف تصبح غير صالحة للسكنى بصفة تامة ٠ أما وسائل المواصلات والخدمات الاســاسية ، من ماء ونور وغيرها من المرافق ، فسوف تتوقف حركتها توقفا تاما ٠ والجهاز الحكومى ، سواء كان مركزيا أو اقليميا ، سـوف يصيبه الشلل الجزئى أو الكلى ٠ أما الانتاج الصناعى فسوف يصيبه تعطل كبير بسبب انقطاع الماء والكهربا والخامات والعمال ٠٠ الخ ، هذا على فرض أن المصانع قد بقيت على حالها ولم يصبها التدمير ٠

يلى ذلك مشكلات كبرى خاصة بتنظيم المجتمع وتغذيته وايوائه ، وخاصة ان الروح المعنوية للشعب سوف تنهار انهيارا خطيرا ٠ وهكذا تصبح المعركة ، معركة من أجل البقاء تحت أسوأ الظروف »

وجاء فى الكتاب الابيض ، الذى قدمه ماكميلان لمجلس العموم ، أن هذه الحقائق يجب أن تكون معروفة للجميع ، لا فى بريطانيا وحدها بل فى العالم كله أيضا ليدرك الكل ما قـد تؤدى اليه حرب نووية من أخطار وأهوال ٠

تلك هى الحقائق المتعلقة بالقنبلة الهيدروجينية ٠ ولم يقتصر الكتاب الابيض على مجرد إثبات مافى استخدام القنبلة الهيدروجينية من هلاك

محقق ، ولكنه ربط بريطانيا بما أطلق عليه فيما بعد « سياسة الرادع النووى » ٠

ولقد ظل مجلس العموم يناقش الكتاب الابيض طوال يومين كاملين فى جلسات تاريخية ٠ وقد افتتح المناقشة ونستون تشرشل، وكان خطابه من أطول الخطابات التى ألقاها فى مجلس العمـــوم وهو رئيس للوزارة البريطانية ٠ وانتهت المناقشة بالخطاب الذى ألقاه ماكميلان بصفته وزير الدفاع ٠

وقد ازدحمت أبهاء المجلس بالزائرين لسماع خطاب تشرشل ، فقد كان حينذاك لا يزال أعظم خطباء المدرسة القديمة فى مجلس العمـــوم ٠ وما كان أحد ليجاريه فى هذا المضمار غير انيورين بيفان ، ولكنه كان فى بعض النواحى أقل مستوى من تشرشل ٠

بدأ تشرشل خطابه بعرض عام لتطور العلوم النووية قائلا ان القنبلة الذرية ، مع ما فيها من أخطار جسيمة ، لا تنتقل بالخيـــال خارج دائرة الاحداث التى يمكن للعقل البشرى أن يسيطر عليهـــا ، سواء فى وقت السلم أو فى وقت الحرب ٠ ولكن حينما قدم سترلنج كول ، رئيس لجنة الابحاث النووية فى الكونجرس الامريكى ، أول بيان شـامل عن القنبلة الهيدروجينية فى ١٧ من فبراير ١٩٥٤ قلب الاسس التى قام عليهـــا المجتمع الانسانى رأسا على عقب ، وأحدث ثورة فى شئون البشر ٠ وجعلنا فى موقف لا يدرك كنهه ولا نعرف مدى ما ينطوى عليه من فنـــاء محقق للبشر ٠

وهنا أشار تشرشل الى صندوق الاقتراحات قائلا : ان كمية من مادة البلوتونيوم التفجيرية ، ـ وقد تكون أقل مما يملأ هذا الحيز الضيق الذى أشير اليه ـ كافية لمنح أى دولة كبرى سيطرة لا حد لها اذا امتلكتهـــا وحدها ٠ وليست هناك وسيلة دفاعية ضد هـذه القنبلة الهيدروجينية ، كما أنه ليست هناك فى الوقت الحاضر أية وسيلة أمام أى دولة لوقاية أراضيها من التدمير النووى ٠

وهنا تساءل تشرشل : ماذا يجب علينـــا أن نفعل ؟ وأى طريق نسلك لانقاذ حياتنا وحياة البشرية كلها ؟ أما العجائز فلا أهمية لهم فى هذا الميدان فهم على أى حال ذاهبون قريبا الى مصيرهم المحتـــوم ، ولكن قلبى يفيض ألما حينما أتصـــور الشباب وما فيه من حيـــوية وحماسة ونشاط ، والاطفال وهم يقومون بألعابهم المرحة ٠ وأقول لنفسى : ماذا يكون مصير هؤلاء لو أن الله تخلى عن البشر ؟ ٠

لقد ألقى تشرشل سؤاله الهام ، وهو : « ماذا يجب علينا أن نفعل؟» ولكنا انتظرنا عبثا فى أثناء خطابه الطويل عله يبعث الطمأنينة الى قلوبنا باقتراح فى جعبته لحل هذا الاشكال ٠ فاذا انتقلنـــا الى الكتاب الابيض وما فيه من تقـــديرات واحصاءات وأرقام عن السفن والمدافع والدبابات والقاذفات لم نجد ردا شافيا ٠ والذى يستخلص من كل ما قاله تشرشل أن هذه الوسائل الدفاعية لم تعد لها أية أهمية أمام القنبلة الهيدروجينية ٠

وبالاضافة الى المبالغ الطائلة التى انفقناها على التسلح ، منذ أن بدأت حكومة العمال برنامج التسلح ، علينا الآن أن ننفق أموالا طائلة جديدة على القنبلة الهيدروجينية وملحقاتها مما تتطلبه الحرب النووية ٠

كانت حكومة العمال فى كتابها الابيض قد اقترحت انفاق ١٥٠٠ مليون جنيه استرلينى على الدفاع موزعة على ثلاث سنوات ٠ وقيل لنا ان بريطانيا ، بعد تنفيذ هذا البرنامج ، تستطيع أن تجلس الى مائدة المفاوضات فى مواجهة السوفييت وتتكلم من مركز القوة ٠ ولكن لم تبد حتى اليوم أى دلالة على أننا أصبحنا أكثر قوة من السوفييت ، بل على النقيض من ذلك ، فكل الدلائل تشير الى أننا يجب أن ننفق مبالغ خيالية حتى نمنع السوفييت من اللحاق بنا ٠ ولم يعد حديث الحكومة اليوم عن برنامج دفاعى يقتضى انفاق ١٥٠٠ مليون جنيه استرلينى على ثلاث سنوات ، ولكن يجب أن نستعد لانفاق مثل هذا المبلغ فى ميزانية دفاعية واحدة فقط باعتباره الحد الأدنى لما يتطلبه الدفاع ٠

ولقد ذكر لنا تشرشل فى خطابه أنه ليست هناك « وسيلة دفاعية مطلقة » أمام القنبلة الهيدروجينية ٠ ولم تبد حتى اليوم أية اشارة الى أن السوفييت خروا سجدا أمامنا فى ذلة متوسلين الينا أن نبدأ المفاوضات ، بل انهم على العكس أصبحوا أشد عنفا وصلابة من ذى قبل ٠ ومعنى ذلك أن برنامجنا الدفاعى الجديد لم يرغمهم على السير البطىء فى برنامج التسلح ، بل دفعهم الى مضاعفة الجهد فى اعداد وسائلهم الدفاعية ٠ وهكذا نستنتج من كلام تشرشل انه لم يبق أمامنا من وسيلة غير التسابق فى التسلح ، وهذا ما نستنتجه من هذه العبارة التى وردت على لسان تشرشل فى أثناء الخطاب وهى : « أود أن أكرر وأؤكد أن موضوع خطابى كله يدور حول عبارة واحدة وهى «الرادع النووى» ذلك ان القنبلة الهيدروجينية قد اقتحمت ، بشكل مذهل ، ميدانين وهما : حياتنا المادية وحياتنا الفكرية ٠»

ومضى تشرشل يقول : ان باب الأمل أمامنا لا يزال مفتوحا، ففى السنوات العشر القادمة سوف يصبح الرادع النووى من القوة على درجة يستطيع معها أن يسيطر على الموقف ، وهنا يبدأ فى جنى ثماره ٠ وقد يجىء اليوم الذى تسود فيه العدالة الانسانية وينتشر الاخاء الانسانى ويرفرف فوق العالم لواء الحرية ، وتسير الاجيال القادمة بخطى ثابتة الى الامام ٠ فلا تنكصوا على أعقابكم ولا تملوا ولا تستسلموا لليأس والقنوط ٠

هذا أسلوب شعرى جميل ، ولكنه لن يغنى شيئا عن الحقيقة المفزعة ، ولا ينطوى على سياسة دفاعية ، وتشرشل نفسه قد أبلغنا فى صراحة أنه لا حيلة لنا أمام القنبلة الهيدروجينية ٠

وبعد أن نزل تشرشل عن منبر الخطابة اعتلاه شنويل ، وزير الدفاع فى وزارة العمال السابقة ، فوجه أسئلة محددة بددت ذلك الجو الشعرى البديع الذى أشاعه خطاب تشرشل ٠

قال شنويل : لقد ذكر رئيس الوزارة اننا نستطيع الرد على هجوم

سوفييتى بهجوم مضاد على أراضيه الواسعة المكشوفة ، وتحدث تشرشل عن قدرة بريطانيا على مضاعفة الرادع النووى البريطانى ضد الاتحـــاد السوفييتى بحيث تصبح أراضيه الواسعة وسكانه المبعثرون هنا وهنــاك مكشوفة أمام الهجمات البريطانية ، بقدر ما انجزيرتنا الصغيرة وأوربا الغربية المزدحمة بالسكان مكشوفة أمام الهجوم السوفييتى أو بما يقرب من هذا القدر ٠

ولكن اذا هاجمنا السوفييت ورددنا بالهجوم على أراضيهم الواسعة فهناك هدف واحد مكشوف بدرجة تفوق كل هدف آخر ، ذلك هو لندن والموانىء البريطانية ٠ فهل يتصور أحد أن فى استطاعتنا تحمل هجوم من هذا النوع ؟ واذا أمكن ذلك فالى متى ؟ ليس أمامنا فى هذه الحــالة الا الفوضى والاضطراب والفرار والهجرة على أوسع نطاق وهكذا تسود الفوضى كل شىء ٠ حقا ، اننا نستطيع توجيه ضربة انتقامية ولكن العضو المحترم (تشرشل) يقول ان الهجوم النووى السوفييتى سوف يكون قد قضى على الملايين ، فهل يرضيك أن تموت لأن غيرك سوف يموت بعدك ؟ ٠

فقال تشرشل : ان الخــــوف من الموت قد يمنع الاقدام عليه من الطرفين ٠

وقد كانت هذه وجهة نظر ماكميلان فى السنوات التالية ٠

وقال شنويل : اذا كان العضو المحترم (تشرشل) يدعو الى اعداد رادع نووى لمنع الاتحاد السوفييتى من هجوم نووى أو للانتقــام منه اذا شن على بريطانيا هجوما نوويا ٠ فلماذا يتمسك تشرشل بنظامنا الدفاعى الحالى وما فيه من أسلحة برية وجوية وحربية ؟ ان هذه اذا كانت قــد وفت بأغراضنا فى الماضى فلاقيمة لها فى الموقف الجديد طبقا للوصف الذى قدمه لنا (تشرشل) ٠

وتحدث شنويل عن المبلغ الصغير المخصص للدفاع المدنى ، وهــو ٧٠ مليون جنيه استرلينى ، قائلا : هل بهــــذا المبلغ نستطيع مواجهة ما يقتضيه الدفاع المدنى لحماية السكان ؟ واذا كانت الحكومة ترى أنه ليست هناك وسيلة للدفاع ضد القنبلة الهيدروجينية فلتصارح الشعب بذلك ، حتى يعرف الموقف على حقيقته ٠ واعتقادى أن الحكومة لما أدركت انه ليست هناك وسيلة لحماية السكان لجأت الى الرادع النووى ٠

وتساءل شنويل : ما سياسة الحكومة الدفاعية ؟ ٠

ثم قال : لقد أشار الكتاب الابيض فى العام الماضى الى احتمال حدوث هجوم ذرى وما يتبعذلك من«حرب كسيحة» ولا يمكننا اليوم أن نتحدث عن هذه الحرب الكسيحة بعد اكتشاف القنبلة الهيدروجينية التى سوف تهلك الناس بالملايين وتدمر المدن والموانى وتوقف حركة الشحن والتفريغ والنقل ٠

ولم تكن الاسئلة التى وجهها شنويل هى ما يدور فى رأسه وحده ، بل كانت متواترة على ألسنة الجميع ٠ واستنتج البريطانيون أن القنبلة الهيدروجينية ليست وسيلة دفاعية ولكنها « رادع نووى » واذ كان المبدأ

الآن هو « الردع » فكل ما ينفق على الجيش والاسطول والسلاح الجوى يدخل تحت باب الردع حتى وان لم يكن نوويا .

وهكذا أصبحت كلمة « رادع » علما ، وصار البريطانيون يكتبونها بحرف كبير ٭.

وأعقب شنويل انيورين بيفان . ولم يكن بيفان حينما ألقى خطابه ، فى الصفوف الامامية للمعارضة ، ولكنه اتخذ مقعدا جانبيا ، لأنه كان فى ذلك الوقت قد استقال من وزارة العمال « المرتقبة » والمقصود بها تحديد الوزارات التى سوف يتولاها أشخاص معينون من أعضاء البرلمان الحزبيين حينما يتـــولى حزبهم الوزارة . وبعد أن ألقى بيفان خطابه طرده حزب العمال من هيئته البرلمانية ، وكان على وشك أن يطرد من اللجنة التنفيذية لحزب العمال ٭.

ولكن خطابه هذا كان من أحسن ما قيل عن القنبلة الهيدروجينية ، وكانت أسـئلته موجهة الى اصحاب المقاعد الامامية من أعضاء حـزب العمال فى مجلس العموم .

بدأ بيفان بالاشارة الى خطاب تشرشل ، فقال ان بلاغته قد غطت على آرائه العادية التى لم تأت بجديد ، وهذا صحيح لأن تشرشل أسهب فى وصف الآثار المدمرة للقنبلة الهيدروجينية دون أن يقترح العـــلاج الناجح ، وماسوف نفعله حيال هذا الخطر الداهم .

وقال بيفان : ان تشرشل وماكميلان وجها انتقادا مرا الى البرنامج الدفاعى الذى أعدته وزارة العمال عام ١٩٥١ فليبينوا لنا الآن ما هـــم فاعلون . ومضى بيفان يقول ان البرنامج ، الذى أعدته وزارة العمال عام ١٩٥١ كان قد بنى على أســاس افتراضات خاطئة ، وقد كانت هـــذه الافتراضات نتيجة لمشورة رؤساء القوات المسلحة فى أمريكا وبريطانيا ، وتتلخص فى أن السوفييت ، فى مدى ثلاث سنوات ، سوف يبلغون القمة فى الاستعداد العسكرى ، وان هذا قد يؤدى الى تفكيرهم فى غزو أوربا الغربية ، وعلى الغرب أن يعمل ما فى وسعه لمواجهة مثل هذا الاحتمال . وبالاختصار : ان الخطر سوف يبلغ مداه فى أواخر عام ١٩٥٣ .

وهانحن أولاء اليوم فى عام ١٩٥٥ ، ومع ذلك فلم يحدث الخطر ، ونحن من جانبنا لم نفعل شيئا لدرئه .

لقد تكلم العضو المحترم (تشرشل) أمس قائلا ان مبدأ الردع كامن فى ثنايا القنبلة الهيدروجينية ، وأنه من المحتمل بدء المفاوضات عاجلا بين الشرق والغرب وان هذه المفاوضات قد تؤدى الى السلام طالما أن استخدام القنبلة الهيدروجينية سوف يكون عملا انتحاريا من كلا الطرفين . واذا كان الأمر كذلك فما لنا صبرنا كل هـــذه المدة حتى يلحق بنا الروس ويصنعون قنبلتهم الهيدروجينية ؟ .

لقد أخبرنا تشرشل اننا يجب أن نتفاوض من مركز القوة ، وكلما ازدادت قوتنا ، مال الروس الى التفاهم والتراضي . وعاد تشرشل يخبرنا

ان الروس لم يحصلوا بعد على القنبلة الهيدروجينية ولا على القاذفات التى تحملها وأن الغرب يحتكر هذا الميدان · وما دام الأمر كذلك فلدينا ميزة المفاوضة من مركز القوة · فلماذا لا نرسل مذكرات الى الكرملين نطلب منه أن يجتمع معنا للمفاوضات ؟ ·

والغريب فى الأمر أن هذه المذكرات بدلا من أن تصدر من لندن أو واشنطون الى موسكو ، صدرت من موسكو الينا· ولقد أدرك رجل الشارع حقيقة موقفنا وهو أننا لسنا أهلا للتفاوض من مركز القوة ·

واذا كان ما يقوله تشرشل حقا وهو رئيس للوزراء فلماذا لا يصر على عقد اجتماعات مع الزعماء السوفيت ؟ يبدو لى ان رئيس الوزراء يريد ذلك ولكن أمريكا تمنع من اتخاذ هذه الخطوة · وهـذا ـ ان صح ـ أمر محزن حقا ، لأننا معرضون للفناء ومع ذلك فليس فى مقدورنا أن نمد أيدينا الى العدو للتفاهم لسبب واحد فقط ، وهو اننا تحت رحمة أمريكا ·

لقد كان بيفان فى عبارته الاخيرة ينطق بالحقيقة التى لا شك فيها والتى أثبتت صحتها السنوات التالية ، فقد أصبحت بريطانيا فعلا «ذنبا» من أذناب الولايات المتحدة، وأصبحت سياستها حيال الاتحاد السوفييتى تخضع لتوجيه من واشنطون ووزارة الدفاع الامريكية ·

قد تهلك بريطانيا هلاكا تاما نتيجة لقرار يتخذ فى واشنطون ، وهذه الحقائق كانت نتيجة حتمية للسياسة التى بدأتها وزارة العمال حينما وافقت على توقيع معاهدة شمال الاطلنطى ، واستمرت هذه السياسة تحت حكومة تشرشل ، وظهرت بوضوح حينما أصبح ماكميلان رئيسا للوزارة ·

وأخيرا وقف ماكميلان ليلقى خطابه ، فتحدث عن أهوال الحرب وما جرى من مذابح فى الحرب العالمية الاولى فى وادى السدم وفى باشنديل ، حيث بلغت الاصابات ٣٦٠ ألفا · أما فى الحرب العالمية الثانية فكان المصاب أدهى وأمر ، ولم يقتصر أمره على المحاربين ولكنه أهلك الابرياء من المدنيين ·

وقال ماكميلان اذا كان مبدأ تحريم القنبلة الهيدروجينية يعنى أننا نحارب بلا أسلحة نووية فأنا ضد هذا المبدأ ، لأن قواتنا التقليدية لا تستطيع مواجهة القوى البشرية الهائلة التى يملكها المعسكر الشرقى · واستنكر ماكميلان الفكرة القائلة بأنه يمكن اجراء الحرب بالاسلحة التقليدية فقط ، وطالب بانتاج القنبلة الهيدروجينية ، وذلك لمواجهة القوى البشرية المتفوقة التى لدى المعسكر الآخر · وافترض ماكميلان أن الغرب سوف يظل متفوقا على الاتحاد السوفييتى فى التسلح النووى ، ولكن الايام أثبتت خطأ تفكيره ، اذ على النقيض من ذلك ، أصبح التفوق النووى فى جانب الاتحاد السوفييتى وليس فى جانب بريطانيا ·

ومضى ماكميلان فى خطابه فتحدث عن موضوع نزع السلاح فقال ان نزع السلاح يجب أن يقوم على مبدأين ، أولهما : أن يكون شاملا، وثانيهما أن يقترن به نظام مناسب للاشراف والمراقبة · وفسر الشمول بأنه يضم جميع الاسلحة قديمها وحديثها ، من أسلحة تقليدية ونووية ، أما نظام

المراقبة فيقتضى وجود لجنة دولية عليا لديها سلطات حقيقية واسعة للقيام بمهمتها • واذا قيل ان هذا من شأنه أن يرفع الامم المتحدة أو أى لجنة عليا أخرى مقترحة ، الى مستوى الحكومة العـــالمية ، فليكن ذلك فهو أخف الضررين ، ولسوف ينتهى المطاف بالبشرية الى هذا الوضع ، سواء كان ذلك عاجلا أو آجلا •

وكانت أضعف نقطة فى خطاب ماكميــــلان ، وفيما تضمنه كتابه الابيض عن برنامج الدفاع ، هى النقطة الخاصة بالدفاع المدنى ، فقد أثبت فى الكتاب الابيض أن كل محاولة لتجنب أخطار القنبلة النووية لا فائدة منها • وقد حاول فى الخطاب أن يدافع عن وجهة نظره ، فقال ان اعتمادات الدفاع المدنى لن تحول دون وقوع الكارثة ولكنها سوف تخفف من أثرها، ثم مضى يغطى على ما فى هذه النقطة من ضعف بأسلوب أدبى رائع ولكنه بعيد كل البعد عن الاقناع •

الضرب على وتر واحد مع مولوتوف

لما تولى ايدن رياسة الوزارة فى ابريل ١٩٥٥ أخذ يبحث عن شخص ليخلفه فى وزارة الخـــارجية ، وقد وجد ضـــالته فى شخص اللورد سالسبورى ، اذ كان له من الخبرة والخلق القوى ما يستطيع به تحمـل أعباء هذا المنصب الخطير ، ولكن اعترض تحقيق هذا الامل أن سالسبورى كان عضـــوا فى مجلس اللوردات • وكان ايدن يرى أن وزير الخارجية لا بد أن يكون عضوا فى مجلس العمـــوم • لذلك وقع اختيار ايدن على هارولد ماكميلان ، ليكون وزيرا للخارجية ، وبخاصة انه سبق أن اشتغل وزيرا بريطانيا فى شمال افريقيا فى أثناء الحرب ، وبذلك اكتسب خبرة دبلوماسية باحتكاكه بالامريكيين والسوفييت والفرنســـيين وهو يتكلم الفرنســــية بطلاقة • وفوق ذلك كله فقـــد كان مظهره وتربيته فى ايتون واكســـفورد والحـــرس الملكى كلها عوامل تجعل اختيـــاره لائقا لوزارة الخارجية •

وقد تولى ماكميلان وزارة الخارجية ، وبريطانيا تمر بحـــادث دولى هام ، وهو توقيع معاهدة الصلح مع النمسا فى ١٥ من مايو ١٩٥٥ • وقد اجتمع لهذا الغرض ، فى فينا ، وزراء خارجية بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى والنمســـا • وقد لاحظ ماكميلان أن أهالى النمسا استقبلوا توقيع المعاهدة بحماسة ظـــاهرة ، لأن بلادهم أصبحت محايدة ، شأنها فى ذلك شأن سويسرة والسويد ، وبفضل هذا الحياد سوف لا يتورط النمسويون فى الانضــــمام الى حلف وارسو أو حلف الاطلنطى •

وبعد توقيع المعـــاهدة ألقى مولوتوف ، وزير خارجية الاتحـــاد السوفييتى خطابا وجه فيه الثناء الى النمسا التى استطاعت أن تحقـــق

استقلالها وحريتها بعد كفاح دام عدة سنوات ، وأن المعاهدة تبدأ عهدا جديدا فى العلاقات الدولية ، وأعرب عن أمل الاتحاد السوفيتى فى أن يكون حل مشكلة النمسا بداية لحل كثير من المشاكل الدولية ، وأن تقتفى دول أخرى أثر النمسا حتى تزداد دول الحياد فى وسط أوربا .

وأعقبه ماكميلان فقال ان توقيعه للمعاهدة ، باسم ملكة بريطانيا ، شرف عظيم له ، وأعرب عن تقديره لجهود وزراء الخارجية البريطانيين الذين سبقوه بالاشتراك فى المحادثات الخاصة بالمشكلة النمساوية، وهم ارنست بيفن ، وموريسون ، وانطونى ايدن . وهنا بدأ يضرب على الوتر نفسه الذى سبقه اليه مولوتوف ، قائلا ان هذه المعاهدة بداية عهد جديد فى تاريخ النمسا .

وفى ٢٢ من يونيو ١٩٥٥ ذهب ماكميلان الى سان فرنسسكو ، للاشتراك فى الاحتفال بالعيد العاشر للأمم المتحدة . وهناك ألقى خطابا جاء فيه : مهما جاء به المستقبل من احداث فيجب أن تظل الامم المتحدة قائمة ، وقد وطدت بريطانيا العزم على أن تتخذ هذا الجهاز الدولى طريقا للتعاون ، والمكان الوحيد الذى تعرض فيه المشكلات الدولية ويبحث لها عن حل .

وقد ظل ماكميلان يظهر حماسته للأمم المتحدة ما دامت اجراءاتها لاتتعارض مع مصلحة بريطانيا ، فبقدر ما أشاد بذكر هذه الهيئة الدولية وما ساهمت به من أجل السلام العالمى ، بقدر ما استنكر موقفها ونددبها حينما عارضت العدوان البريطانى الفرنسى على قناة السويس .

وحينما عقد مؤتمر الاقطاب فى جنيف فى يوليو ١٩٥٥ سافر ماكميلان الى جنيف مع انطونى ايدن رئيس وزراء بريطانيا فى ذلك الوقت . وهناك أتيحت الفرصة أمام ماكميلان للاجتماع مع مولوتوف ، وزير خارجية الاتحاد السوفييتى ، وكذلك مع بولجانين رئيس الوفد السوفيتى ، وخروشوف . وقد جرى فى هذه الاجتماعات من الانسجام بين ايدن وماكميلان من جهة ، والوفد السوفييتى من جهة أخرى . ما أدى الى توجيه الدعوة الى بولجانين وخروشوف لزيارة لندن .

أرباح السداد وأمنية حالم

فى ٢٢ من ديسمبر ١٩٥٥ وقع الاختيار على ماكميلان ليتولى منصب وزير المالية . وكان أول ما فعله ماكميلان ، كوزير للمالية ، هو اتخاذ اجراءات جديدة لمواجهة النقص فى ميزان المدفوعات البريطانى . كذلك وجد ماكميلان أن ميزانية الموظفين فى ازدياد مطرد ، مع أن المحافظين حينما تقدموا للناخبين ببرنامجهم الانتخابى ، كان من بين هذا البرنامج تخفيض ميزانية الخدمة المدنية . وقد أعلن ماكميلان أن من بين الاجراءات التى سوف تتخذ لتحقيق هذا التخفيض ، اجراء تخفيض فى اعانة الخبز قدرها ٧١/٢ بنس على الرغيف ، وهذا يوفر للميزانية ١٨ مليون جنيه

أسترليني في السنة . كذلك كان من بين الاجراءات رفع اسعار التجزئة للبن وهذا يوفر للميزانية ٢٠ مليون جنيه استرليني في السنة .

لقد ظل ماكميلان وزيرا للمالية لمدة تبلغ نحو سنة ، أعد في خلالها مشروع ميزانية واحدة ، وفي أثناء مناقشة مشروع الميزانية تحدث ماكميلان عن اقتراح جديد ، وهو عقد قرض داخلي جديد يقوم به ذوو الدخل الصغير ، ويسحب عليه يانصيب كل ثلاثة أشهر .

وفي اليوم التالي ظهرت الجرائد وعلى صفحاتها الاولى ، بالخط العريض ، العناوين الآتية : ميزانية ١٩٥٦ هي لاول مرة في التاريخ ، ميزانية أرباح السندات . الحكومة تغطى عجز الميزانية باليانصيب .

وقد كان لميزانية ماكميلان وقع سيىء في المجلس ، ولم يقتنع الاعضاء بالادلة التي قدمها دفاعا عن هذه الميزانية . ولما لم يجد مخرجا من المأزق ، الذي أوقعته فيه ميزانيته ، وقف يوجه حملة تشنيع ضد حكومة العمال السابقة وخاصة ضد جيتسكل، محاولا بذلك توجيه انظار المجلس عنه في فشله .

وقبل أن نختتم هذا الفصل لابد ان نستجلي نقطة واحدة ، وهي ان الرأي العام كان يعلق آمالا كبيرة على أن ينجح ماكميلان في تخفيض اعباء المصروفات العامة ، وخاصة نفقات الدفاع . ولكن ماكميلان ، بصفته وزيرا للمالية ، القى خطابا في أثناء مأدبة أقامها مكتب الصحافة الخارجية ، وقد صرح في خطابه هذا بأن أي تخفيض في الميزانية ، وخصوصا ميزانية الدفاع ليس الا خيال حالم .

ولعل ماكميلان كان في موقفه هذا ، يتذكر جيدا ما حدث لسابقيه فقبله بخمسين عاما وقف اللورد راندولف تشرشل ، وزير المالية حينذاك ، معارضا ميزانية الدفاع ، واضطر تحت ضغط العاصمة التي هبت في وجهه من النواب ، أن يقدم استقالته .

كذلك كان من الاسباب التي أدت الى استقالة انيورين بيفان ، وهارولد ويلسون ، من حكومة العمال ، نفقات الدفاع .

ولكن ماكميلان كان حريصا على منصبه الوزاري ، فلا هو يريد أن يتخذ اجراء عاجلا مثلما اتخذ راندولف تشرشل ، ولا هو يريد أن يرغم على الاستقالة كما حدث لبيفان وويلسون .

مغامرة السويس

لما تولى انطونى ايدن رياسة الوزارة البريطانية بعد ونستون تشرشل ، كان من النادر أن تجد بين الناس فى ذلك الوقت من يتصور ان ايدن سوف يخلى منصبه بعد عامين وهو محطم مشوه الاسم يكاد يكون نسيا منسيا . ذلك ان ايدن كانت لديه كل المؤهلات التى تجعل منه رئيس وزراء محافظا من الصنف التقليدى المحبوب الذى الفته بريطانيا ، فهو خريج اكسفورد ، ومن ضباط الحرس الملكى السابقين ، وهو جميل الطلعة ذو خبرة طويلة بوزارة الخارجية وأعمالها ، سواء قبل الحرب أو فى خلالها فى وزارة تشرشل . وكان يتمتع بمركز ممتاز فى نظر الحكومات الاجنبية . ولم يكن متطرفا فى نزعته العدوانية حيال الاتحاد السوفييتى ، واذا فرض أن كان الطريق الى تحسين العلاقات مع الاتحاد السوفييتى هو الوسائل الدبلوماسية العادية فقد كان ايدن خير سياسى يمثل بريطانيا فى هذا السبيل . والواقع ان ايدن أظهر فى الاشهر الثمانية عشر الاولى بشائر توحى بأنه سوف يكون رئيس وزارة ناجحا يتمتع بسمعة طيبة فى مجلس العموم وبين أعضاء حزب المحافظين .

ولكن أزمة السويس نزلت عليه كما تنزل صاعقة من السماء ، حتى لقد أصبح فى عزلته وانزوائه يكره كلمة « السويس » وكل مايتصل بها من ذكريات .

ان ترجمته التى كتبها بنفسه لا تلقى الا ضوءا ضئيلا على العوامل التى حدت به الى اتخاذ قرار نهائى والاقدام على هذه المغامرة المهلكة ، التى أدى فشله فيها الى انهياره وسقوطه الى الهاوية . لقد كنا نتخيل أن ايدن لديه من الفطنة والتفكير التقدمى ما يستطيع معه أن يدرك مقدما أن مثل هذه المغامرة لا تصلح للقرن العشرين . وكلما قرأنا عن الحوادث التى أدت الى كارثة السويس ازددنا عجبا : كيف أمكن لوزارة بريطانية يتمثل فى رجالها الذكاء ورجاحة العقل أن تتخذ قرارا بتحمل مسئولية التورط فى شن هجوم عسكرى على مصر ، بل يصبح عجبنا أشد من ذلك اذا فكرنا فى الطريقة التى تم بها تنفيذ خطة الهجوم .

ولكن لننظر الى الموضوع ، على اعتبار أنه حادث من حوادث الماضى لقد كانت حادثة السويس مغامرة دولية يمتزج فيها الاجرام بالغباوة وهى من الناحية السياسية اجراء لا سبيل الى تبريره او الدفاع عنه ، وهى من الناحية العسكرية عرضة للنقد المدمر ، ومن الناحية المالية والاقتصادية حماقة وجنون مطبق .

حينما بدأت أزمة السويس كان هارولد ماكميلان وزيرا للمالية، واذن فهو الوزير البريطانى المسئول عن مالية الدولة . ولنتساءل الآن: أى كسب يرى وزير المالية ان بريطانيا سوف تجنيه من وراء الدخول فى حرب مع مصر من أجل السويس ؟ .

ان المنطق السليم يوحى بأنه اذا كان هناك وزير بريطانى يرى من

واجبه الدعوة الى ضبط النفس والحرص والحزم وحسن التصرف فى مثل هذا الموقف فهو وزير المالية . ولا ننسى انماكميلان كان قد أصدر كتابين عالج فيهما المسائل الاقتصادية ، وهو لم يكن بين المحافظين من الجناح اليمينى الامبريالى مثل ايمرى ، كما لم يكن فى راى مجلس العموم من المتمسكين بمجد الامبراطورية الزائل، مثل الكابتن ووترهاوس الذى كان من زعماء « فريق السويس » الذى لايتحمل التبعة ولا يركن اليه .

الحق يقال انه لا يزال هناك ستار يخفى وراءه ماحدث فىالوزارة البريطانية من تطورات أدت الى أزمة السويس، وأن ماكميلان لم يساعد فى كشف هذا الستار برفضه تشكيل لجنة تحقيق « منتقاة » لمعرفة ماحدث .

ولكن ، اين كان ماكميلان وقت اعداد الخطة العســـكرية لحملة السويس ؟ وهل قدم أى تحذيرات أو اعتراضات على مثل هذا الاجراء ؟

من المؤكد أنه كان هناك فزع فى بعض دوائر الوزارة ، ودليل ذلك الاستقالة الجريئة التى قدمها السير ادوارد بويل السكرتير البرلمانى لهذه الوزارة .

لم يكن هذا الرجل معروفا فى دوائر الحكومة البريطانية بالاندفاع وعدم التروى ، وكان لا يزال شابا فى بدء حياته السياسية ، ولهذه الاعتبارات لم يكن ليستقيل لولا أن رأى فى الأمر من الخطر مايدعو الى الاستقالة .

ومن المفيد هنا أن نذكر ما تلقاه ماكميلان منمشورة أهل الخبرة فى وزارة الخزانة بشأن سياسة الحكومة البريطانية فى مشكلة السويس .

المفهوم لدينا ان الحكومة كانت فى ذلك الوقت متلهفة على اجراء بعض التخفيضات فى المصروفات العامة ، وهذا أيضا ما طالب به ماكميلان فى الخطاب الذى قدم به الميزانية الى مجلس العموم . ومادام الأمر كذلك فمن الغرابة بمكان الاقدام على غزو السويس الباهظ النفقات ، وخاصة أن الأمر يقتضى زيادة نفقات القوات المسلحة بأجمعها ، لأنه كان من المحتمل أن تؤدى هذه المغامرة الى اقحام بريطانيا فى حربمعدولأخرى .

حقيقة ان نصرا حاسما على « ناصر » قد يرفع من شأن الحكومة البريطانية ، ولكن على فرض أننا انتصرنا على « ناصر » فان معنى هذا اعادة احتلال منطقة القناة ،وقد يقترن بذلك احتلال قطاع كبير من مصر وفى هذا من الأعباء المالية مافيه . واذن فسواء انتصرنا على « ناصر » أو خسرنا المعركة ضده فسوف تتحمل الخزانة البريطانية عبئا ثقيلا فى الحالتين .

ويدعونا العجب أن نتساءل : الم يفكر ماكميلان ، بصفته وزيرا للمالية ومسئولا عن الشئون المالية للامة ، فيما يحتمل أن تؤدى اليه حرب السويس من عواقب ؟ ألم يكن من واجبه أن يحذر ايدن ووزارته من أن هذه المغامرة سوف تكون كارثة على بريطانيا ؟ لو أن ماكميلان ، بصفته وزيرا للمالية أشار ولو من طرف خفى ، الى انه سوف يستقيل لوواصلت الحكومة البريطانية استعداداتها للهجوم المسلح على مصر ، لتوقف كل شىء .

ولكن ، أية مزايا اقتصادية يحتمل ان تحصل عليها بريطانيا من مهاجمة منطقة قناة السويس ؟ حقيقة ان جانبا كبيرا من البترول الذى نستهلكه يستورد من منطقة الشرق الاوسط عن طريق قناة السويس ، ومن هنا فان بعض مؤيدى ايدن فى مغامرته برروا تأييدهم هذا بأن احتلال منطقة القناة سوف يضمن بقاء القناة مفتوحة لتدفق البترول على بريطانيا واستمرار السفن البريطانية فى عبور القناة . ولكن ، ألم تلق الحكومة البريطانية بنظرها الى الامام ؟ ألم تفكر فى احتمال وقوع حوادث تخريب تؤدى الى اغراق بعض السفن فى مجرى القناة ؟ وهل لم تدرك أن تدمير انابيب البترول سوف يكون ذا أثر قوى فى وقف تدفق البترول ؟ .

لعل المسئولين عن القوات المسلحة البريطانية كانوا يرون أن مغامرة السويس سوف تكون فرصة طيبة لاحراز نصر مؤزر ، وهؤلاء لهم العذر باعتبارهم رجال العسكرية ، ولكن ماعذر وزير المالية ، وهو يعلم علما تاما ان النصر والهزيمة كلاهما باهظ النفقات ، وخاصة بعد ما أصبح واضحا أن امريكا تعارض التدخل العسكرى وأن الاتحاد السوفييتى يستعد لاتخاذ اجراء عسكرى ؟

لقد كان اتخاذ القرارات المتعلقة بمعركة السويس تتخذ فى دائرة خاصة داخل وزارة ايدن ، وكان ماكميلان عضوا فى هذه الدائرة الخاصة ، وبدلا من أن يعارض الحملة على السويس كان من مؤيديها .

وليتذكر القارىء ماقلناه من قبل وهو أن ايدن حينما اختار ماكميلان وزيرا للمالية طلب منه أن يعمل على اجراء تخفيض فى المصروفات ، وحذره من كل ما يؤدى الى التضخم النقدى . و فى شهر ابريل أرسل ايدن الى ماكميلان مذكرة أعرب فيها عن قلقه بسبب الحالة الاقتصادية المضطربة وأوضح له فيها الحاجة الشديدة الى الاقتصاد . ولكن يبدو أن ايدن قد نسى كل شىء يتعلق بالموقف الاقتصادى فى بريطانيا فى تصميمه على اذلال « ناصر » ، ولكن لو أن وزير المالية كان أمينا حقا على أداء وظيفته لذكر ايدن بأن موقف بريطانيا الاقتصادى لايحتمل مغامرة فى الخارج ، ان ماكميلان ، بدلا من ذلك اخذ يؤيد اجراءات ايدن فى اثناء اجتماعات الدائرة الداخلية ، والشخص الوحيد الذى أشيع انه يعارض اتجاهات ايدن ، هو بتلر .

يخبرنا ايدن فى مذكراته أن ماكميلان أدلى بتصريح ، بعد زيارته لامريكا جاء فيه مايلى :

« ان واشنطون واثقة من أن ستة أشهر من الضغط الاقتصادى على ناصر كافية لتحقيق كل ما تطلبه بريطانيا » .

ويعلق ايدن على ذلك قائلا :

« ولكنى غير متفائل بما تقوله واشنطون . وخاصة انه قد مضى نحو شهرين على تأميم القناة وهيئة المنتفعين لاتزال أبعد ماتكون عن أن تمارس أى ضغط على ناصر ، سواء كان اقتصاديا أو غير اقتصادى » .

ويمضى ايدن فى مذكراته قائلا : ان الوزارة بهيئتها الكاملة كانت تؤيده ، واستشهد على ذلك بأن أحد الوزراء البريطانيين ، فى اثناء حديث له مع جون فوستر دالاس فى السفارة الامريكية بلندن ، قال ان بريطانيا ســوف تمضى فى خطتها العســكرية ، حتى لو أدى ذلك الى أن ترهن ماالديها من تحف فنية فى السوق الدولية .

ومما يؤسف له حقا أن السير انطونى ايدن قد جانب الصواب وكذب على التاريخ . فأبناؤنا من بعدنا سوف يتساءلون : من هذا الوزير البريطانى الذى ابدى استعداده لرهن التحف الفنية البريطانية للانفاق على مغامرة السويس ؟ .

لقد بعث المارشال بولجانين بمذكرة الى بريطانيا قال عنها ايدن انها صيغت فى أسلوب « تهديدى » ولكن الولايات المتحدة من جانبهـا قدمت نصيحتها لبريطانيا .

وأصيب الجنيه الاسترلينى بهزة عنيفة فى السوق الدولية .. ألم يقدر ماكميلان احتمال وقوع هذا الخطر بصفته وزيرا للمالية ؟ .

لقد قرر ايدن أن نفقــات اعداد الحمـــلة بلغت ١٢ مليون جنيه استرلينى وأن الاحتفاظ بقوة الحملة على استعداد للطوارىء ، ابتداء من منتصف سبتمبر ، يكلف مليونين كل شهر ، والعملية العسكرية نفسها قدر لها نحو مائة مليون استرلينى، وهذا يعادل ١/١٦ من الميزانية العامة لبرنامج الدفاع . وقال أيضا ان خزانة الدولة مقتنعة بأن هذه الارقام لا تثقل كاهلها الا اذا تعطلت الملاحة فى القناة وظلت أنابيب البترول بدون اصلاح .

وكان على ماكميلان ، بصفته وزيرا للمــالية ، أن يدخل فى اعتباره كل الاحتمالات الممكنة التى قد تتعرض لها الخزانة ، وكان عليه أن يبلغ ذلك لزملائه ، وكان عليه أن يبلغهم أيضا أن المضـــاربة على الاسترلينى اشتدت فى أمريكا .

ولكن ماكميلان لم يفعل ذلك الا بعد فترة طويلة . فقد أبلغ مجلس العموم أن الضغط على الاسترلينى اشتد منذ بداية نوفمبر، وأن الاحتياطى البريطانى من الدولار هبط بمقدار ٥٧ مليونا فى سبتمبر و ٨٤ مليونا فى اكتوبر ، و ٢٧٩ مليونا فى نوفمبر ، وهذا الرقم يعـــادل ١٥٪ من احتياطى بريطانيا الكلى من الذهب والدولار .

وفى شهر نوفمبر ساد الذعر دوائر الخزانة البريطانية ، حتى لقد أبلغ المسئولون فيها ماكميلان ، يوم ٦ نوفمبر ، ان هبوط الاسترلينى قد زاد لدرجة أنه أصبح يساوى ٢٫٧٨ من الدولار فقـــط ، أما المدخرون للاسترلينى فقد بدأ يتسرب الخوف الى نفوسهم مما سوف تكون عليه حال العملة فيما بعد . وقد أخذت الدوائر المالية الامريكية تمارس كل أنواع الضغط على الحكومة البريطانية ، واضطر ماكميلان الى أن يرسل برقية لواشنطون يتوسل اليها أن تمنح بريطانيا قرضا قدره ألف مليون دولار، وذلك لانقاذ الاسترلينى ، وردت أمريكا فى اليوم نفسه بأنها على استعداد لمنح القرض ، بشرط أن توافق بريطانيا على وقف اطلاق النار حتى منتصف

الليل • وكان في هذا الرد فصل الخطاب ، فقد أرغمت الوزارة البريطانية على قبوله ، وبذلك انتهت أزمة السويس •

لا بد أن رياسة الوزارة البريطانية ، في ١٠ شارع راوتنج ستريت، كانت مشهدا لحوادث مثيرة في هذه الايام • ولو أتيح لتاريخ حياة ماكميلان أن تعرض على شاشة التليفزيون ، كما هو الحال مع تشرشل ، اذن لشاهدنا مناظر كثيرة لما كان يجرى في أثناء أزمة السويس ، وأشد هذه المناظر اثارة صورة ماكميلان ممسكا بسماعة التليفون ، وهو يتوسل الى واشنطون أن تمنحه القرض لانقاذ الاسترليني •

لقد أنقذ الاسترليني من الانهيار ، ولكن هذا ما كان ليحدث لو أن وزير المالية اتخذ موقفا حازما ، وأوقف السياسة التي كانت على وشك أن تؤدى بالاسترليني الى الانهيار التام •

أما تكاليف حملة السويس فقد ترك تقديرها الى وزير مالية آخر ، ففي ٣ من فبراير ١٩٥٩ ، وجه النائب آرثر لويس سؤالا الى آموري وزير المالية الجديد طالبا منه بيانا عن تكاليف حرب السويس ، على أن يدخل فيها ما فقدته بريطانيا من أسلحة وعتاد حربي في قاعدتها على القناة • كذلك طلب النائب بيانا عن الدخل ، الذى حصلت عليه بريطانيا في السنة السابقة لحرب السويس • نتيجة لحركة الصادرات والواردات بينها وبين مصر ، وما فقدته بريطانيا بسبب وقف الاتجار مع مصر •

ورد آموري قائلا : ان صافي ما أنفقته القوات المسلحة على الاجراءات الخاصة بالاستعداد لعمليات السويس قدر بنحو ٢٥ مليون جنيه استرليني ، وقدرت القاعدة البريطانية وما فيها من عتاد بنحو ٦٠ مليونا• وهذه تقديرات تفتقر الى كثير من الدقة ، كما تفتقر الى الوضوح •

ولما أصبح ماكميلان رئيسا للوزراء سأله أحدهم أن يختار مؤرخا لتدوين تاريخ حرب السويس ، ولكن ماكميلان رد قائلا : لا •

وهنا سأله جون ستراتشي : نحن ندرك ادراكا تاما أن رئيس الوزراء ينفر من فكرة اختيار مؤرخ ليصدر تاريخا رسميا لحرب السويس ، فهل رئيس الوزراء على استعداد للموافقة على أن ما سوف يكتشفه ذلك المؤرخ من حقائق هو أن الحكومة البريطانية اتخذت سياسة خاطئة ، أدت الى عمليات عسكرية خاطئة •• موجهة نحو أهداف خاطئة ؟•

وهنا رد ماكميلان بأن نشر رسائل الجنرال «كيتلي» فيه الكفاية •

كذلك رفض ماكميلان تشكيل لجنة مختارة للتحقيق في عملية السويس كلها• وهنا سأله انيورين بيفان : ما الذى يخشاه رئيس الوزراء من تشكيل هذه اللجنة ؟ هل يخاف من نشر شيء يتعلق بشخصه ؟

فرد ماكميلان قائلا : كلا ياسيدى • سأفعل ذلك في الوقت المناسب (مقاطعة) ــ سوف تتاح الفرصة لعرض هذه الامور على الامة في فترة أقرب مما يتصوره الاعضاء المحترمون •

وسأل الكولونيل كلدج : ان تشكيل لجنة تحقيق في العمليات

العسكرية الفاشلة أمر جرى عليه العرف فى بريطانيا • ومن أمثلة ذلك ماجرى فى حملة الدردنيل ، وحملة العراق • ومن حق الرأى العـــام البريطانى أن يعرف ماذا كان حكامه لا يزالون يفخرون بما فعلوه فى السويس •

لقد صرح رئيس الوزراء بأن الشعب سوف يكون حكما فى هـــذا الموضوع • وهذا كلام لا عيب فيه ، ولكننا فى بلد ديموقراطى ، وكيف يتاح للشعب اذن أن يحكم اذا لم تقدم اليه الحقائق ؟ أما اذا صدر تفسير الحقائق من جانب واحد فقط فهذا ليس عملا ديموقراطيا •

نحن أمام حكومة تفخر بما فعلته فى السويس ، وتثق بأنها تركت فى السويس صفحة بيضـــــاء ناصعة • واذا كان رئيس الوزراء ووزير خارجيته حقا على ثقة من ثبات مركزهما فعليهما اثبات ذلك • أما طريق الاثبات فهو أن يتقدموا الى لجنة تحقيق مختارة من بين أعضـــاء مجلس العموم وما داموا واثقين من أنفسهم فليس هناك ما يدعوهم الى الخوف من المثول أمام اللجنة اذ أن الوثائق السرية سوف تكون ، فى هذه الحالة فى جانبهم •

ووقف أنيورين بيفان : فقال ان المعارضة لا تبنى مطالبتها بتشكيل لجنة تحقيق برلمانية على أساس ما طلبته الصحافة ، ولكننا نفعل ذلك بعد الحقائق التى ظهرت فجأة فى هذه الليلة •

فقد ألقى البريجادير « هيد » وزير الحرب السابق خطابا اتهم فيه زملاءه السابقين بأنهم تعمدوا اعداد خطة كانوا يعلمون أنها عملية انتحارية ثم فروا قبل تنفيذها •

وقال « هيد » ان عملية السويس قد وضـعت ، منذ البداية ، فى مأزق . فمنذ يوم خروجنا من مصر أصبح أقرب مراكزنا القوية لشرق البحر الابيض هو مالطة ، لا قبرص ، وذلك لاسباب مالية وهندسية . واتخاذ مالطة قاعدة أساسية وضع كثيرا من العراقيل فى طريق الحملة •

وهنا سأله انيورين بيفان : ألم يكن ذلك معروفا لديكم من قبل ؟

ورد هيد قائلا : لقد كنا جميعا نعرف ذلك من غير شك ، وكان من واجب كل من تعرض لاعداد العمليات العسكرية أن يدركه أيضا • ومـع ذلك فمبلغ علمى أنه لم يحاول أحد اخفاء هذه الحقيقة •

فوقف جون ستراتشى ليقول : الا يعلم النائب المحترم انه بالاسهاب فى الكلام عما سماه المأزق العسكرى يثبت أن الموقف كان من الخطورة على درجة لابد أن تؤدى الى تلك الكارثة المفجعة التى انتهى اليهـــا ، وانه بردوده يؤيد موقفنا ضد حماقة الحكومة تأييدا تاما ؟ وأخيرا فلا شك فى أن ماكميلان يتحمل نصيبه فى مسئولية كارثة السويس • ولكن مهما تكن العواقب العسكرية والاقتصـــادية والمالية لحرب السويس فان نتيجتها السياسية هى استقالة ايدن من رياسة الوزارة البريطانية •

وبعد استقالة ايدن فى ينـــاير ١٩٥٧ كان الاختيار بين ماكميلان

وبتلر . ولما كان بتلر قد ظهر بمظهر المعادى لمغامرة السويس ، أو على الاقل كان فاترا فى تأييدها فى حين كان ماكميلان من مؤيديهـــا ، فقد فضل ذوو المقاعد الخلفية من الاعضاء المحـــافظين ، ماكميلان على بتلر ، وهكذا أصبح رئيسا للوزارة .

بتلر أو ماكميلان

قليل من الناس من كان يتصور عام ١٩٥٦ أن هارولد ماكميـــلان سوف يدعى الى قصر بكنجهام عام ١٩٥٧ ، ويكلف بتأليف الوزارة ، وقبل أزمة السويس قل بين رجال البرلمان من كان يرى ان ماكميـــلان سوف يصبح رئيس الوزراء التالى بعد ايدن . ولو أجرى رهان عمـــا اذا كان ماكميلان أو بتلر أقرب الى تولى الرياسة لكانت النتيجة واحدا فى صف ماكميلان مقابل عشرة فى صف بتلر . ولقد كتب فرانسيس بويد ، مراسل صحيفة « الجارديان » الالمعى ، قبل ذلك بيوم يقول : لاشك لدى فى أنه لو خلا منصب الزعامة فى حزب المحافظين فىالمستقبل القريب فلن يشغله الا بتلر .

والواقع ان هذا كان رأى أعضاء البرلمان المحافظين فى ذلكالوقت حتى لقد أظهر الكثيرون منهم دهشتهم مع بقية الرأى العـــام حينمـــا علموا أن الاختيار وقع على ماكميلان ليشغل منصب رياسة الوزارة . فلم يكن ماكميلان زعيما للمحافظين ، ولم يتم انتخابه بطريقة ديموقراطية سليمة ، أى ان هيئة المحافظين البرلمانية لم تقترع على اختيارهللمنصب ولو اجرى مثل هذا الاقتراع ، كما هى العادة حين اختيار زعيم لحزب العمال ، فلا شك فى أن بتلر كان هو الذى سيفوز بها .

هـــكذا تم اختيار ماكميلان لرياســـة الوزارة البريطانية من وراء ستار دون الرجوع الى الهيئة البرلمانية لحزب المحافظين .

لقد كان انهيار ايدن مفـــاجئا ، ولما حدث ، افترض الجميع ان خلفه هو بتلر ، ويبدو أن هذا هو ماكان بتلر نفسه يفترضه ، ففى أثناء غياب ايدن فى الخارج كان يرأس اجتماعات الوزارة ، وهو أيضا زعيم المحافظين فى مجلس العموم كما أنه وزير الداخلية .

ولنتســاءل الآن : لماذا لم يدع بتلر الى قصر بكنجهام لتسند اليه رياسة الوزارة ؟

يخبرنا السير تشارلس تيرى فى كتابه «الملكية البريطانيةالحديثة» ان الملكة لم تلق اية عقبة أمامه فى نقل الرياسة من ايدن الى ماكميـــلان فقد استشارت اللورد سالسبورى ، وونستون تشرشل ، وكـــذلك استشارت رئيس الوزارة السابق ايدن ، والمعروف انه كان يميل الى ماكميلان ، وبهذه الاستشارات تكون الملكة قد تمشت مع التقـــاليد

الدستورية باختيارها الرجل الذى كان له أكبر وزن فى نظر مؤيدى الحكومة ، واذن فطريقها سليم لا مطعن عليه .

ولا يخبرنا ايدن فى مذكراته عمن أوصى به ، وعلى فرض أنه أوصى بماكميلان فلماذا استشير سالسبورى وتشرشل فيما بعد ؟

ولكن اذا كانت الملكة قد استشارت سالسبورى ، بصفته رئيسا لمجلس اللوردات ، فلماذا لم تستشر رئيس مجلس العموم ؟

وحينما استقال ايدن كتب المعلق السياسى لجريدة « التايمس » فى عدد ١٠ يناير ١٩٥٧ يقول ان بتلر لديه كل المؤهلات التى تجعله أول مرشح لرياسة الوزارة ، ولكن يبدو ان الجناح الايمن لحزب المحافظين، وهو جناح قوى ، لن يزكيه اذ أنه يفضل عليه هارولد ماكميلان .

وكتب المعلق السياسى لصحيفة « المانشستر جارديان » يقول ان هناك عنصرا قويا بين المحافظين فى مجلس العموم ، يوجه اللوم الى المستر بتلر لمعارضته لانطونى ايدن بسبب سياسته العسكرية فى ازمة السويس . ولكن لاننسى أن مغامرة السويس كلفتنا نفقات باهظة لم نكن نستطيع تحملها، وأدت الى تصدع فى العلاقات بين بريطانيا وامريكا وأضرت بالعلاقات بيننا وبين بلاد الكومنولث . وعلى العموم فهناك عناصر قوية النفوذ فى حزب المحافظين تصمم على ابعاد بتلر عن رياسة الوزارة . وهذه العناصر هى التى أطلق عليها اسم « فريق السويس » ومعهم من يناصرهم من بقية المحافظين . وعلى الرغم من أن بتلر يلقى تأييدا حزبيا كبيرا فانه يبدو أن معارضيه من المحافظين على استعداد لاثارة المتاعب اذا ما أصبح رئيسا للوزارة .

ومن ناحية أخرى ، اذا تم اختيار ماكميلان لرياسة الوزارة فان الجناح اليسارى من المحافظين ، وكذلك جماعة المعتدلين سوف لايثيرون فى وجهه المتاعب لان الوحدة الحزبية أهم لديهم من أى اعتبار آخر .

والذى نستخلصه من أقوال الصحف ، ومما يدور بين المحافظين فى اجتماعاتهم الخاصة . أن السبب الاساسى فى عدم اختيار بتلر لرياسة الوزارة هو موقفه المعارض لايدن فى أزمة السويس . لقد كتب اللورد لامبتون مقالا فى صحيفة « ايفننج ستاندارد » قال فيه : لاشك فى أن بتلر لم يبد أى ارتياح لخطة السويس فى جملتها وتفاصيلها، وأنه أعرب عن رأيه فى هذا الموضوع صراحة ولعله فى ذلك لم يلزم جانب الحكمة . حقيقة انه حينما بلغت الازمة غايتها لم يحاول بتلر أن يجمع الرأى العام حول ايدن ، ولكن ما أن بدأ ايدن العمل الجدى فى تنفيذ خطته حتى وجد بتلر بجانبه يسانده ويؤيده .

هذا هو التلخيص الحقيقى لموقف بتلر ، ولكن الغالبية العظمى من المحافظين كانوا ينظرون الى بتلر نظرة ريبة فى اثناء أزمة السويس ، وبذلك هبطت سمعته بينهم الى حد أصبح من المحال معه ترشيحه لرياسة الوزارة . انها كانت مؤامرة دنيئة على بتلر ، ولقد بعثت فى نفسى الاشمئزاز لدرجة أننى فكرت فى اعتزال الحياة السياسية .

سيد القلعة

لقد اثبتت الحوادث خطأ أولئك الذين ظنوا ، بعد معركة السويس ، أن حكومة المحافظين لن تعمر طويلا ، وأن ماكميلان سوف يخلى مكانه لبتلر . فما ان تولى ماكميلان منصبه حتى أخذ يتجه بسياسته نحو مجلس العموم ويحاول التقارب من المعارضة .

لقد جاء بعد تشرشل وايدن ولكنه لم يكن شبيها لاحدهما ، فلم تكن لديه تلك الجاذبية الشخصية التى كانت من خصائص ايدن ، ولكن معلوماته عما يجرى فى البلاد كانت أوسع بكثير من معلومات ايدن . والواقع ان ايدن لم يكن رئيس وزراء بالمعنى المفهوم عن رؤساء الوزارة فى بريطانيا ، وهو فى الحقيقة لم يخرج عن أن يكون وزير خارجية خلع عليه كساء من المجد . بل قل انه كان أصلح للسلك الدبلوماسى . ولو أن بريطانيا عينته سفيرا لها فى الخارج لكانت قد أحسنت الاختيار .

أما تشرشل فهو شخصية فذة فريدة فى نوعها . كان ذا قدرة فائقة على توجيه المناقشات البرلمانية ، وهو حاضر البديهة لاذع التندر ، فاذا وقف على منبر الخطابة فهو سيد الموقف .

أما صاحبنا ماكميلان فلم يمتلك رقة ايدن وظرفه ، ولا حيوية تشرشل ومرحه ، ولكن ادراكه للامور واسع ، وهو لايتحدث فى أى أمر الا بعد دراسة عميقة . وقد اكتسب سمعة طيبة بين أعضاء البرلمان حينما علموا أنه يؤيد زيادة رواتبهم . ولم يكتف ماكميلان بما حققه من نجاح ، بل ان احدى دور الاعلان الكبرى فى لندن تولت نشر الدعاية له استعدادا للانتخابات العامة القادمة .

أما متاعبه فى الوزارة فقد بدأت بمشكلة قبرص ، فقد كان هناك خلاف بين الوزراء حول القرار الخاص باطلاق سراح الاسقف مكاريوس واعادته من منفاه فى سيشل ، ليتولى المفاوضات مع الحكومة البريطانية بشأن مستقبل قبرص .. كانت قبرص قد أصبحت شوكة تقض مضجع بريطانيا ، فهناك النفقات الباهظة التى تثقل كاهل الخزانة البريطانية ، وهناك سوء التفاهم الذى سببته هذه المشكلة بين بريطانيا واليونان ، وهناك جماعة « أيوكا » وما تسببه من خسائر فى الارواح والاموال للقوات البريطانية فى الجزيرة .

وما ان مضت ثلاثة أشهر على تولى ماكميلان منصب رياسة الوزارة حتى استقال اللورد سالسبورى من رياسة مجلس اللوردات ومن زعامة المحافظين فى هذا المجلس ، احتجاجا على القرار الذى اتخذته وزارة ماكميلان لاطلاق سراح مكاريوس . لقد كان القرار الذى اتخذه ماكميلان قرارا حكيما وعلى الرغم من ذلك فان معارضة سالسبورى له أوجدت لماكميلان فى شخصه خصما عنيدا ، عاد يهاجمه مرة أخرى بشأن سياسته فى جنوب افريقيا . وقد استطاع ماكميلان ان يتغلب على خصمه بشعبيته ، فعلى الرغم من نفوذ سالسبورى القوى فى مجلس

اللوردات ، باعتباره ممثلا للعنصر الارستقراطى العتيق ، فلم يكن يحظى ، مثل ماكميلان ، بأى نفوذ بين الجماهير .

أما الخطر الحقيقى الذى واجه ماكميلان فقد جاء فى العام التالى، ففى يناير ١٩٥٨ استقال بيتر ثورنيكروفت ، وزير المالية ، ومعه وزيران آخران، هما اينوك باول ونيجل بيرش. ولكن ماكميلان استطاع ايضا أن يتخطى هذه العقبة ويكتسب ثقة المحافظين ، وخاصة أنه ، بعد فترة ، أعاد ثورنيكروفت وزيرا للطيران وأعاد زميله اينوك باول وزيرا للصحة .

وفى الوقت الذى قدم فيه ثورنيكروفت استقالته قام ماكميلان برحلته المشهورة لزيارة بلاد الكومنولث ، فزار الهند وباكستان ونيوزيلنده واستراليا . وكان يلقى ترحيبا حارا كلما زار بلدا باقتراحه الذى يقضى بتوقيع ميثاق عدم اعتداء بين حلف الاطلنطى وحلف وارسو لتخفيف حدة الموقف الدولى ، وأعرب الجميع عن أملهم فى ان يخرج مثل هذا الاقتراح الى حيز العمل .

وفى أثناء رحلة ماكميلان الى بلاد الكومنولث جرت مناقشة فى مجلس العموم حول موضوع استقالة ثورنيكروفت ، ووقف ثورنيكروفت ليشرح وجهة نظره للمجلس فقال : ان رئيس الوزارة ، وقد كان وزيرا للمالية من قبل ، يعلم تمام العلم اننا فى أشد الحاجة الى الاقتصاد فى المصروفات ، ولكن الحكومة أخذت ، فى الفترة الاخيرة ، تتجه نحو تحقيق هدفين : أما الهدف الاول فهو أن نصبح دولة نووية نجارى الدول النووية الكبرى ، وهى أمريكا والاتحاد السوفيتى ، فى القذائف الموجهة وفى القذائف المضادة وفى الاسلحة التقليدية ، وأن يكون لدينا مايكفى من قوات الدفاع فى الشرق الاقصى وفى الشرق الاوسط وفى الاطلنطى .

فاذا انتقلنا الى الهدف الثانى نجد الحكومة تسعى الى اقامة مايسمى بدولة الرفاهية ، أو حكومة الخدمات الاجتماعية ، وانها تريد من وراء ذلك أن ترفع مستوى المعيشة فى بريطانيا الى مثل مستوى المعيشة فى الولايات المتحدة بل أعلى منه . فكيف تريد الحكومة ان تحمل خزانة الدولة كل هذه الاعباء فى وقت واحد ، بل تسعى فى الوقت نفسه الى زيادة المصروفات فى باب الاجور والمرتبات الخاصة بالخدمة المدنية ؟ ان الحكومة تحاول انشاء دولة الحرب ودولة الرفاهية والسلام فى وقت واحد ، وهذا محال .

مضى ثورنيكروفت يقول : منذ اثنتى عشرة سنة ونحن ننتقل من ازمة مالية الى أخرى ، فمرة تكون ازمتنا فى ميزان المدفوعات ، ومرة اخرى فى المحافظة على مركز الإسترلينى فى سوق النقد الدولية، واقد هبطت قدرة الاسترلينى الشرائية من عشرين شلنا الى اثنى عشر شلنا، وليست هذه صورة الامة التى تريد أن ننعشها ونقيم فيها الرخاء ، ولكنها صورة لامة تنكص على عقبيها وتتراجع عن تحمل نصيبها من المسئولية . وأخيرا فليس هذا هو الطريق الى المجد ولكنه طريق الدمار .

ووقف ، بعد ثورنيكروفت ، هارولد وينسون ، ليتحدث باسم المعارضة ، فقال ان ماكميلان ، رئيس وزراء بريطانيا الذى يتحدث عن الخدمات الاجتماعية ، قرر يوم ٢٥ من أكتوبر ١٩٥٦ ، أى قبل غزو السويس بخمسة أيام ، اجراء تخفيض فى معاشات المسنين وذوى الامراض المزمنة العاجزين عن الكسب ، وقد حصل من ذلك على وفر قدره خمسة ملايين جنيه استرلينى فقط ، والنواب المحترمون أدرى بما أنفقه على مغامرة السويس .

ولم تكن المشكلة مقتصرة على تلك الدائرة الضيقة ، وهى زيادة المصروفات أو تخفيضها ، بل كانت أعمق من ذلك بكثير ، فقد كانت سياسة ماكميلان الاقتصادية تتجه الى وضع اقتصاديات بريطانيا بين أيدى الاحتكارات الكبرى وكبار المقاولين والمضاربين فى حى السيتى (حى المال ورجال الاعمال) وفى سوق الاوراق المالية .

ولكن ما أثر هذا كله على مركز ماكميلان ؟

لقد كان كل ماذكر ضعيف الاثر ، فالمحافظون بأغلبيتهم البرلمانية وقفوا وراءه صفا واحدا لعلمهم ان الانتخابات العامة على الابواب، وهم يريدونه أن يخوض بهم المعركة الانتخابية وأن يخرجوا منها ظافرين .

استراتيجية الرادع النووى

كان اختيار ماكميلان لدنكان سانديز وزيرا للدفاع فى وزارته ذا أهمية خاصة بالنسبة لرئيس الوزراء ، فماكميلان كان يعلم علما جيدا أن سانديز هو الوزير الذى ينفذ بلا تردد أية سياسة تملى عليه أو أى واجب يكلف به . وقدر ماكميلان ان الموقف يحتاج الى شخصية سياسية خشنة عنيفة لتنفيذ البرنامج الدفاعى الذى كان يجول بذهنه

وبعد شهر من تولى ماكميلان للحكم قدمت المعارضة اقتراحا بلوم الوزارة . وأعربت فى هذا الاقتراح عن أسفها لانه على الرغم من أنه قد انفق على الدفاع منذ عام ١٩٥١ مايزيد على ٧٥٠٠ مليون جنيه استرلينى فقد أكدت الحوادث الاخيرة أن هذه الاموال بددت فيما لايعود على الدفاع البريطانى بفائدة حقيقية . وطالبت المعارضة باعداد برنامج دفاعى جديد يحقق درجة عالية من الكفاية ، ويؤدى فى الوقت نفسه الى تخفيض كبير فى نفقات الدفاع والى الغاء الخدمة الاجبارية .

وحينما قدم جورج براون اقتراح المعارضة ذكر المجلس بالخطاب الذى كان ماكميلان قد ألقاه فى ١٦ مايو من العام السابق فى المأدبة التى أقيمت فى نادى المراسلين الاجانب حينما كان وزيرا للمالية .

وكان ماكميلان قد تحدث فى خطابه هذا عن امكان اجراء تخفيضات كبيرة فى ميزانية الدفاع ، ودفعه الغلو الى تقديم تقديرات

رقمية تبعث على الاغراء ، وأشار جورج براون الى أن ماكميلان حين الحديث عن التخفيضات ذكر الرقم ٧٠٠ مليون جنيه استرليني مالايقل عن خمس مرات أو ست وليس لذلك من تفسير الا أن وزير المالية حينذاك (يقصد ماكميلان) كان يريد الشعب البريطاني على أن يفهم ان السبعمائة مليون هو رقم التخفيض المحتمل .

وهنا وقف ماكميلان للرد على جورج براون فقال « ان العضو المحترم قد خلق أسطورة من خطابي السابق . فما كنت أقصده في نادي المراسلين الاجانب هو أن بريطانيا كانت تتحمل عبئا دفاعيا ثقيلا يثقل كاهل اقتصادها ، وأن نصيب بريطانيا من نفقات التسلح الغربي يزيد كثيرا على نفقات كثير من شركائها في حلف الدفاع الغربي ، ولكن استطاعتها تحمل هذا العبء الفادح دليل على ثبات مركزها الاقتصادي واذن فالعضو المحترم أساء تفسير خطابي ، وقد فعل ذلك عن قصد »

ونحن لا نرى في رد ماكميلان مايقنع ، فمن المؤكد انه ذكر رقم « ٧٠٠ مليون » كأساس للتخفيض ، في نادي المراسلين الاجانب ، وهذا ليس بالمكان الذي يجوز فيه لوزير المالية البريطانية أن يعبث بالعبارات وخاصة أنه يتحدث عن ميزانية بلاده .

ولندع هذا جانبا ثم لنسأل : ماذا كانت تقديراته للتخفيضات الممكنة في ميزانية الدفاع ؟ وماذا كانت خطته لاجراء هذه التخفيضات ؟

لقد رد دنكان سانديز على هذا باسم الحكومة ، وقدم بيانات تضمنها فيما بعد كتاب أبيض عن هذا الموضوع .

اعترف سانديز في بيانه بأن بريطانيا قد بلغت نقطة تحول في وسائلها الدفاعية ، وانه لابد من اتخاذ قرارات حاسمة كبرى في هذا الشأن ..

ومضى سانديز يقول ان المسئولية الاساسية التي تضطلع بها الحكومة هي حماية أرواح الشعب والدفاع عن استقلال البلاد ، ولكن الحكومة البريطانية في قيامها بتحمل هذه المسئولية الكبرى تواجه تقدما هائلا في تطوير الاسلحة ذات التدمير الشامل .

وهنا أشار سانديز الى خطأ الفكرة القائلة بأن ميزانية الدفاع يمكن تخفيضها الى النصف في يوم وليلة ، وأن دافع الضرائب البريطاني سوف يعفى من عدة شلنات من الضريبة في بضعة أسابيع ، فهذا في نظره من باب التمنيات . والمهم ان التخفيض سوف يتم يوما ما .

وفي شهر ابريل قدم سانديز لمجلس العموم ماسمي حينذاك بالكتاب الابيض التاريخي ، وكان هذا يتضمن تفصيلات عن القرارات الكبرى التي اتخذتها الحكومة والتي سبق أن وصفها بأنها « نقطة التحول » .

وقد جاء في الفقرة الاولى من الكتاب الابيض أن الوقت قد حان لاعادة النظر في الهيكل العام لبرنامج الدفاع ، لا أن يقتصر الامر على

حجمه فقط ، فالخطر الشيوعى باق ولكن طبيعته تغيرت وأصبح من الواضح من الناحيتين العسكرية والاقتصادية انه من الضرورى اعادة النظر فى المشكلة والبحث عن حل جديد لها .

وأكد سانديز أن نفوذ بريطانيا فى العالم يتوقف أولا وقبل كل شىء على سلامة اقتصادها ومدى نجاحها فى تجارة الصادر ، فبدون هذين العنصرين لن تستطيع بريطانيا اعداد مايلزمهما من وسائل دفاعية . ومن هنا يتبين أن من مصلحة الدفاع أن تسير النفقات العسكرية جنبا الى جنب مع الحاجة الى الاحتفاظ بسلامة مالية البلاد واقتصادها .

ولقد كانت ميزانية الدفاع فى السنوات الخمس الماضية تمتص ١٠٪ من اجمالى الدخل القومى فى بريطانيا وأن نحو ٧٪ من الطبقة العاملة البريطانية يعملون اما فى القوات المسلحة واما فى نواح لها ارتباط بهذه القوات ، وأن ١٢١/٢٪ من انتاج الصناعات المدنية التى تعتمد عليها تجارة الصادر فى بريطانيا تخصص للدفاع ، وهناك بجانب ذلك عدد أكثر مما ينبغى من العلماء المتازين والمهندسين يعملون فى خدمة الدفاع ، وأخيرا فان احتفاظ بريطانيا بقوات كبيرة فى الخارج يرهق ميزانيتها ويؤثر تأثيرا سيئا على ميزان المدفوعات .

ومن هنا يتبين لنا ان الكتاب الابيض كان ذا دلالة كبرى ، اذ تعرض لذكر عامل من العوامل الاساسية فى المصاعب الاقتصادية التى تواجهها بريطانيا ، كما تضمن استنكار السياسة الدفاعية التى اتبعتها كل حكومة بريطانية منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية ، وخاصة الحكومات التى تولت منذ عام ١٩٥١ . كذلك كان الكتاب الابيض يتضمن ادانة الوزراء المسئولين عن اعداد ميزانية الدفاع فى هذه الفترة ، ولقد كان ماكميلان وزيرا فى ثلاث وزارات رئيسية فى السنوات السابقة وهى الدفاع والخارجية والمالية ، ومن هنا تثبت ادانته. فهو الذى دعا الى الموافقة على ميزانية الدفاع حينما ألقى خطابه ، بصفته وزيرا للدفاع ، عام ١٩٥٥ ، وهو الذى اعتمد هذه الميزانية عام ١٩٥٦ بصفته وزيرا للمالية، وبجانب ذلك فهو مسئول عن السياسةالخارجية التى رسمت الخطوط العريضة لهذه السياسة الدفاعية حينما كان وزيرا للخارجية .

وتعرض الكتاب الابيض للحديث عن الرادع النووى ، فقال انمن دواعى الصراحة الاعتراف بأنه لاتوجد فى الوقت الحاضر وسيلة كافية لحماية الشعب البريطانى من عواقب هجوم بالاسلحة النووية . وعلى الرغم من أن مقاتلاتنا تستطيع ، فى مثل هذه الحالة ، أن تنزل بقاذفات العدو خسائر فادحة ، فلا بد من أن تتسرب بعض هذه القاذفات الى المجال الجوى البريطانى ، وتعمل عملها التدميرى ، وعلى فرض ان هذه القاذفات كانت « دستة » واحدة فقط فهى تستطيع ، بما تحمله من قنابل تبلغ قوتها ملايين الاطنان من المواد المتفجرة ، أن تحدث قدرا هائلا من التدمير . والعالم الحر الآن يعتمد أساسا ، فى حمايته ، على ما تملكه الولايات المتحدة من قوة نووية .

وعلى الرغم من أن بريطانيا لاتستطيع أن تساهم فى هذا المضمار الا فى حدود متواضعة ، فهناك نسبة كبيرة من الموافقة على أن بريطانيا يجب أن تمتلك قدرا كافيا من الرادع النووى على أن يكون ملكا خاصا لها . ونحن الآن ننتج القنابل الذرية ، ولدى القوات الجوية البريطانية مقدار كبير منها ، كذلك نحن بسبيل انتاج القنبلة الهيدروجينية التى تبلغ قوتها ملايين الاطنان ، وبعد قليل سوف نجرى تجاربنا عليهـا ثم نبدأ فى انتاجها وتخزينها .

ووردت فقرة فى الكتاب الابيض عنوانها : « اندفاع عن الرادع النووى » .

وجاء فى هذه الفقرة أن الدفاع عن قواعد القاذفات البريطانيـة أصبح له المقام الاول قبل اعداد الدفاع المدنى .

وقد ظل مجلس العموم يومين فى مناقشة سـياسة الدفاع ، التى تضمنها الكتاب الابيض ، ويستخلص من خطاب سانديز ، باعتبـاره وزير الدفاع ، أن هذه السياسة ترتكز على قاعدتين : الاولى انه من المحال الدفاع عن البلاد ضد هجوم بالقنابل الهيدروجينية ، والاخرى ان بريطانيا ـ سـواء رضيت أو لم ترض ـ لا تستطيع ان تواصـل تخصيص جانب كبير من مواردها ، وخاصة مواردها فى القوى البشرية ، لشئون الدفاع .

كذلك تبين من خطابه ومن خطاب ماكميلان ان التركيز على انتاج الاسلحة النووية يقتضى تخفيض الانفاق على الجيش والبحرية ، وأن التجنيد الاجبـارى يجب أن يوقف . وقال سـانديز انه سـوف يتم تسريح ٣٠٠ ألف جندى ، وعدد كبير غيرهم من المدنيين الذين يعملون فى خدمة القوات المسلحة وخاصة منهم العلماء ، وهذا سـوف يوفر لدافع الضرائب قدرا كبيرا من المال .

وقد تعرضت هذه السياسة ، التى شرحها سانديز ، للنقـد الشديد من جهات متعددة ، فبعضهم رأى استبعاد القنبلة الهيدروجينية من برنامج الدفاع البريطانى استبعادا نهائيا ، والبعض الآخر رأى عدم تخفيض الاسلحة التقليدية بل مضاعفة الانفاق عليها مع تخفيض ماينفق على الاسلحة النووية .

وقف ماكميلان ليلقى خطابه ، فأيد ماجـاء فى الكتاب الابيض بشأن سياسة الدفاع قائلا انها سياسة تتسم ببعد النظر كما انهـا انشائية . وأكد ماكميلان ان الموضـوع كله يدور حـول ما اذا كانت بريطانيا تتخذ قرارا بشأن استخدام الاسـلحة النووية أو رفضهـا وقال ان تخفيض الاسلحة التقليدية مستحيل اذا لم تستعد بريطانيـا بالرادع النووى ، لا بل انها اذا اعتمدت اعتمـادا كاملا على الاسـلحة التقليدية فلا بد من اعداد قوات جديدة كبيرة ، وفى هذه الحالة فلا أمل للحكومة فى الحصول على العدد الكافى من المجندين ، على قاعدة التجنيد الاختيارى ، أى ان فكرة الغاء التجنيد الاجبارى تلقى ظهريا .

وخلاصة خطاب ماكميلان ان الغاء التجنيد الاجبارى وتخفيض القوات المسلحة التقليدية لايتحققان الا بانشاء قوة نووية رادعة .

وقد تقدمت المعارضة العمالية بتعديل يقتضى البدء بالعمل فورا فى اعداد مقترحات انشائية لالغاء التجارب الهيدروجينية ، ورد ماكميلان على ذلك مغالطا ، فقال ان « تأجيل » التجارب الهيدروجينية معناه انها لن تظهر مرة أخرى الى عالم الوجود .

غير ان هيو جيتسكيل وقف على الفور ليبين لمجلس العموم ان رئيس الوزراء يفسر التعديل العمالى تفسيرا خاطئا ، وأن وجهة نظر حزب العمال الصريحة هى الغاء التجارب الهيدروجينية الغاء نهائيا وليس تأجيلها ، على أن يكون مفهوما أنه فى الفترة التى تجرى فيها المفاوضات لالغاء هذه التجارب نهائيا ، توقف بريطانيا تجاربها مؤقتا ، فاذا لم يتم الاتفاق الدولى على الغاء التجارب ، فليس هناك ما يحول دون استئناف بريطانيا لتجاربها .

وهنا أبدى ماكميلان تصميمه على عدم وقف التجارب الهيدروجينية قائلاً : انه الى أن يتحقق نزع سلاح شامل يضم الاسلحة النووية والتقليدية ، فلا بد لبريطانيا من الاعتماد على الرادع النووى ، والا فانه ليس أمامها من سبيل غير الاستسلام للخصم .

ومضى ماكميلان يقول : ليس هناك طريق وسط بين الرادع النووى والاستسلام ، واعتقد أن كثيرا من المواطنين يوافقوننى على أن قبول الرادع النووى خير من تعريض حرياتنا الدينية والمدنية للخطر .

وكانت هذه هى العبارة ، التى يتخذها ماكميلان فى دفاعه فى كل مناسبة وفى كل مأزق . وأصبحت أساسا لسياسته الخارجية والدفاعية حينما أصبح رئيسا للوزراء ، انها سياسة تؤدى الى الفناء ، ولا ندرى مدى ماسوف يكون لها من أثر مهلك لبريطانيا فى المستقبل .

لقد اعترف ماكميلان فى اثناء خطابه بأنه حدث انهيار خطير فى العلاقات بين بريطانيا وأمريكا بعد مغامرة السويس ، وانه بعد أن تولى رياسة الوزارة البريطانية تلقى دعوة من ايزنهاور لزيارة أمريكا وعقدا معا عدة اجتماعات فى برمودا فى الفترة من ٢١ الى ٢٤ مارس ١٩٥٧ . وصدر بيان مشترك يقول ان ماكميلان وايزنهاور راضيان عن النتائج التى أسفرت عنها اجتماعات برمودا .

وقد أجرى مجلس العموم مناقشة حامية حول موضوع اجتماعات برمودا ، قال ماكميلان فى اثنائها ان اجتماعات برمودا لم تكن « للبكاء على اللبن المسكوب » أما من الذى سكب اللبن فهذا مالم يتعرض له ماكميلان . كذلك تجنب الخوض فى اى حديث عما قرره ايمرى بشأن السبب الذى حدا بالسلاح البحرى الامريكى لتوجيه تهديد الى بريطانيا وقت مغامرة السويس ، وكذلك بشأن السبب الذى حدا بالحكومة الامريكية لاتخاذ قرارات مالية حاسمة مقترنة بدعوة بريطانيا الى وقف مغامراتها فى السويس .

لقد أعلن ماكميلان أن المحادثات دارت فى برمودا حول ما سوف يتبع فى المستقبل ، وكان اهتمام ايزنهاور موجها الى نقطة واحدة، وهى ما الذى يحتمل أن يحدث فى بريطانيا باعتبارها القاعدة الرئيسية للقاذفات الامريكية فى أوربا ؟

ولقد قدم له ماكميلان فى هذه النقطة تأكيدات بعثت الاطمئنان الكامل الى نفسه ، ذلك أن الرأى الذى يسود الحكومة البريطانية هو أن بريطانيا كلها سوف تستظل « بالمظلة » الامريكية ، حتى لو أدى بهـا ذلك الى الهلاك . كذلك اتفق ايزنهاور وماكميلان على الحاجة الى التجارب الهيدروجينية والاستراتيجية النووية . وأكد ماكميلان للنواب أن بريطانيا سوف تواصل تجاربها على جزيرة كريسماس فى الباسفيكى ، وأن ما أبدته اليابان من مخاوف خاصة بوصول الاشعاع الذرى اليها لا مبرر له ، لأن اليابان تبعد ٤٠٠٠ ميل عن مركز التفجير

ولقد أبدت أمريكا استعدادها لتزويد بريطانيا بالقذائف الموجهة، على أن تظل الرءوس الذرية تحت اشراف أمريكى .

هذا وقد أكد ناقدو ماكميلان ، بعد عودته من برمودا ، أنه كان فى لهفة على استرضاء أمريكا بعد مغامرة السويس ، حتى انه وافق على الخطة السياسية التى وضعتها أمريكا دون أدنى معارضة . وقد علق ريجنالد باجيت ، على موقف ماكميلان قائلا : انه اذلال لم تقبله دولة كبرى من قبل . وبعد شهور قليلة أصبحت سياسة بريطانيا الدفاعية واضحة كل الوضوح ، وهى أن تصبح رادعا نوويا تحت تصرف أمريكا وفى خدمتها !

الدكتور جيكل ومستر هايد ذو الوجهين

فى ١٢ من مارس ١٩٥٨ وجه ماكميلان خطابا الى اللجنة السياسية فى حزب المحافظين ، وقد نشر خطابه فى كتيب تحت عنوان « الطريق الوسط » وهذا يذكرنا بكتاب آخر تحت هذا العنوان نفسه كان قد نشره منذ عشرين عاما .

وقد بدأ خطابه ، أو كتيبه ، بالقول بأن عضو البرلمان المحافظ اذا كتب فهو انما يعبر عن رأيه الشخصى فقط وليس عن رأى الحزب ، وأن هذا العضو نفسه قد يناقض فى خمسينات القرن ما سبق أن اعتنقه فى الثلاثينات من مبادىء .

والحقيقة ؛ التى لا مراء فيها ، أن ماكميلان استطاع بحيله ومهارته فى المداورة ، والتلاعب بالعبارات ، والتظاهر أحيانا بأنه مخطىء وأنه يلوم نفسه على ذلك ، استطاع بذلك كله أن يفوز بالعطف بل بالتقدير . ولكنه

في الحقيقة أصبح شخصا يختلف اختلافا تاما عن ماكميلان الشاب الثائر وآرائه التقدمية واتجاهه الى خدمة الطبقات العاملة • وحينما كان نائبا شابا حديث عهد بمجلس العموم ، تنكر لزعماء حزب المحافظين الذى ينتمى اليه ووصف هؤلاء الزعماء بأنهم كالخشب المسندة التى لا تعى ولا تفقه شيئا ولكنها كما تريد لها التقاليد العتيقة البالية أن تتحرك • وكان من بين هؤلاء الزعماء تشمبرلين ، وبولدوين ، وماكدونالد • أما القدامى من أعضاء البرلمان المحافظين ؛ الذين كانوا يسخرون منه فى بداية حياته البرلمانية ، فقد أصبحوا اليوم من أقوى أنصاره ومن أشد المتحمسين لتأييده •

ترى : هل تغير ماكميلان أو تغير هؤلاء المحافظون ؟

حينما كان تشرشل من شباب الاحرار ، قبل أن ينضم الى صفوف المحافظين ، ثم قبل أن يصبح زعيمهم ؛ وصف جماعة المحافظين بأنهم « عصابة » تضم أصحاب المصالح فى اتحاد قوى لاستغلال الشعب • فهم يقارفون الظلم داخل بلادهم ، ويحاولون ستر جريمتهم الوطنية بجريمة خارجية على حساب شعوب أخرى . وماكميلان بدوره لم يبلغ مابلغه تشرشل من الفصاحة وسحر البيان ولكن هؤلاء المحافظين لم يسلموا من لسانه • واذا كان تشرشل قد انتهى به المطاف الى زعامة أولئك الذين ندد بهم واستنكر سلوكهم المعيب ، فان ماكميلان أيضا لم يشذ عن تلك القاعدة •

لقد قدم القصصى الاسكتلندى ستيفنسون، للعالم مثلا خالدا لصاحب الشخصية المزدوجة ، ممثلا فى الدكتور جيكل والمستر هايد ، وماكميلان لايخرج فى حياته السياسية عن أنه هذا الانسان المزدوج الشخصية الذى يظهر على المسرح مرة فى ثوب المستر هايد ويظهر مرة أخرى فى زى الدكتور جيكل •

لقد درس الاقتصاد، فى حياته الاولى، وأخرج بعض كتيبات اقتصادية ليست ذات قيمة علمية،ولكنها على أى حال توحى بأنه يأخذ نفسه بالدرس والتحصيل ؛ وأنه يتجه نحو الاصلاح الاجتماعى، ويعمل بجد لحل المشاكل الاجتماعية الكبرى ، كمشكلة الفقر ومشكلة البطالة والظلم الاجتماعى •

كذلك كان فى حياته الاولى يدعو الى اعداد برنامج شامل لاعادةالتنظيم الصناعى ، واتهمه قدامى المحافظين فى ذلك الوقت بأنه يدعو الى آراء ثورية •

لقد قال فى الخطاب ، الذى وجهه لشباب المحافظين ، ان كثيرا من الآراء التى تضمنها كتابه « الطريق الوسط » الذى صدر منذ عشرين عاما أصبح اليوم غير ذى موضوع • ولكن : هل حقيقة أن الاوضاع البريطانية التى انتقدها ماكميلان عام ١٩٣٨ قد تغيرت وحلت محلها أوضاع جديدة أكثر صلاحية عام ١٩٥٨ ؟ الواقع أنه حدثت تغييرات كبيرة سواء فى معدل البطالة أو فى مستوىالمعيشة أو فى الخدمات الاجتماعية ، ولكن الفضل فى ذلك كله يرجع الى الاجراءات التى اتخذها الاشتراكيون البريطانيون الذين يسخر منهم ماكميلان الآن ويوجه اليهم نقده اللاذع .

لقد تضمن كتاب ماكميلان القديم « الطريق الوسط » اصدار تشريعات تستهدف اعادة التنظيم الصناعى ، بحيث تضمن للطبقة العاملة مستوى عاليا من المعيشة ، وهذه التشريعات تقتضى تدخلا كبيرا من الدولة فى المشروعات الرأسمالية الفردية ، يمكن بذلك رفع مستوى الاجور واحاطة العمال بالضمانات الاجتماعية . فهل طالب ماكميلان عام ١٩٥٨، وهو رئيس للوزراء ، بمثل هذه التشريعات ؟ لا . فهو يعلم علما تاما أنه لو فعل ذلك لتنكر له أصحاب المصالح الكبرى ، وللهم من المحافظين ؛ ولعملوا سريعا للتخلص منه . لقد قبلوه رئيسا للوزراء بشرط ضمنى ، وهو ألا يمس مصالحهم بسوء ، وألا يصدر أى تشريع من شأنه أن يؤثر على رأس المال الخاص .

ولقد تحدث ماكميلان فى كتابه السابق « الطريق الوسط » عما لنقابات العمال من أهمية كبرى ، حتى لقد قال ان الفارق الاساسى بين مجتمع ديموقراطى ومجتمع يقوم على الحكم الاستبدادى هو وجود نقابات العمال فى المجتمع الاول واختفاؤها من المجتمع الثانى ، ولا يكفى هذا بل لا بد من أن تقوم النقابات على أسس تنظيمية يختارها العمال أنفسهم ، وأن كل تنظيم صناعى لا يكفل حقوق العمال انما هو تنظيم رأسمالى خاطىء .

هذا هو قوله فى شبابه . ولك أن تقارن الآن بين آراء ماكميلان ، الشاب التقدمى الثائر على الرأسمالية، وبين ماكميلان رئيس الوزراء وزعيم المحافظين حينما يقول عن نقابات العمال :

نحن جماعة المحافظين نرى أن الهدف الاول هو الوحدة القومية . ولكن اذا كان المحافظون يهدفون حقا الى الوحدة القومية فلماذا لا يقبلون بين صفوفهم من يمثل نقابات العمال والتعاونيات ، فهل هؤلاء لاتضمهم عبارة الوحدة القومية ؟ أو أن الوحدة القومية وقف على طبقة ممتازة ، هى حزب المحافظين ؟ .

الواقع أن ماكميلان ، الشاب ؛ ما كان ليعارض الاشتراكية أو التأميم من حيث المبدأ ، بل كان على استعداد لقبول تأميم بعض الصناعات،ولقد أنهى كتابه بفصل عن « اعادة التنظيم الصناعى » قال فيه : يجب قبول العلاج الذى اقترحه الاشتراكيون ، وهو تأميم بعض الصناعات والخدمات التى ينطبق عليها المبدأ العام ، وهو : هل استنفد المشروع الفردى أغراضه الاجتماعية ؟ وهل الاصلح للاقتصاد الوطنى أن ننظر الى بعض الصناعات والخدمات الرئيسية نظرة أوسع وأشمل على أساس من الاعتبارات الاجتماعية بدلا من أن ننظر اليها من ناحية تحقيق الربح فقط ؟ .

فماذا جرى حتى تتعرض حكومة العمال الى نقد ماكميلان العنيف وسخريته اللاذعة لسبب واحد فقط وهو أنها طبقت ما سبق أن أوصى به فى كتابه « الطريق الوسط » ؟.

ان الشىء الوحيد الذى جرى ، هو أن ماكميلان تنكر لمبادئه فى سبيل الاحتفاظ برضاء المحافظين عنه ، أو بمعنى آخر فى سبيل الفوز برياسة الوزارة وزعامة حزب المحافظين .

رحلة ماكميلان الى الاتحاد السوفيتي

لقد أثارت رحلة ماكميلان الى الاتحـاد السوفييتي في فبراير ١٩٥٩ اهتمام العالم بأسره ، وكثر التساؤل عن السبب الذى حدا به للقيام بهذه الرحلة، والامل الذى يريد تحقيقه من ورائها. ولقد استقبلت موسكو هذا الزائر الغريب المفاجيء القادم من الغرب بما يستحقه من تكريم • وحينما هبط من الطائرة التى أقلته الى الاتحاد السوفييتي عزفت فرقة موسيقى الجيش الاحمر نشيدا عسكريا ، وكان فى اسـتقباله فى المطار خروشوف وكبار رجال الحكومةالسـوفييتية والهيئة الدبلوماسية، وتعالت الهتافات حينما أخذ يستعرض حرس الشرف •

وقد أثارت قبعته البيضاء، المصنوعة من جلد الدب، كثيرا من الدهشة والسرور ؛ اذ يبدو أنه أول زائر وصل الى موسكو فى هذا الزى • ولقـد علقت الصحف على قبعته الغريبة قائلة انها أهديت اليه من صديق كندى وعلى أى حال فلم تكن لباس رأس مألوفا فى موسكو • وقد ألقى خروشوف خطاب ترحيب مسهبا ذكر فيه أن ماكميلان قد سبقت له زيارة الاتحـاد السوفييتي منذ ثلاثين عاما مضت ، وفى هذه الفترة الطويلة تغيرت معالم الاتحاد السوفييتي بل تغير العـالم كله • وأكد خروشـوف فى خطابه أن الاتحاد السـوفييتي ينشد السلام، وأنه على استعداد للدخول فى محادثات مثمرة ، ودعا الى التفاهم بين بريطانيا والاتحاد السوفييتي قائلا انه لخير السلام العالمى •

وكان قد مضى على زيارة خروشوف الى لندن ثلاث سنوات حتى ذلك التاريخ ، وفى هذه الفترة تأثرت العلاقات بين البـلدين بالحرب الباردة ، ولكن خروشوف أعلن أنه يعتبر زيارة ماكميلان لموسكو اذابة لجليد الحرب الباردة وأن الاتحاد السوفييتي يرحب ترحيبا حارا بهذه الزيارة ، وسوف يبذل أقصى ما يستطيع من جهد ليجعل منها زيارة مثمرة •

ومن الواضح أن ماكميلان تأثر كثيرا بهذا الاستقبال الحافل • ولنذكر هنا أن أول رئيس وزارة بريطانية زار الاتحـاد السـوفييتي هو ونستون تشرشل ، وكان ذلك فى أثناء الحرب العالمية الثانية ، أما ماكميلان فهو أول رئيس وزارة بريطانية يزور الاتحاد السوفييتي وقت السلم •

وقد كان لزيارته أسـباب ثلاثة : أولها أنها رد لزيارة خروشوف للندن منذ ثلاث سنوات سابقة ، وثانيها أن ماكميـلان كان يود أن يشهد بنفسه ما حققه الاتحاد السوفييتي من تقدم منذ زيارته السابقة له ، وقد مضى عليها نحو ثلاثين عاما ، والسبب الثالث أنه كا يريد أن يجرى محادثات جدية أملا فى الوصول الى تفاهم يخفف من حدة التوتر الذى يسود العالم وصرح ماكميلان بأن هذا هو أهم أهدافه ، وأنه يرجو ألا يعود من موسكو الا وقد حققه كله أو معظمه •

وقد غادر خروشوف وماكميلان موسـكو الى مقر ستالين الريفى ، حيث بدآ محادثات طويلة ذكر فيها خروشوف ضيفه بأنه سبق أن وجه

حديثا الى الشعب البريطانى دعا فيه الى اجراء محادثات سوفيتية بريطانية لعقد ميثاق عدم اعتداء بين البلدين ، وهنا أعلن خروشـوف أن الاتحاد السوفييتى على أتم اسـتعداد لاجراء محـادثات بشأن هـذا الميثاق ، بل توقيعه •

وقد أثار تصريح خروشوف الحيرة فى نفس ماكميلان الذى لم يكن يتوقع مثل هذه التطورات المفاجئة • ومن المؤكد أنه لم يجىء الى موسـكو لتوقيع ميثاق عدم اعتداء مع الاتحـاد السوفييتى ، لانه لن يجرؤ على أن يفعل ذلك قبل استشارة حلفاء بريطانيا •

وحينما ظهر رئيسا الوزراء فى المقصورة الخاصة فى مسرح البولشوى لاحظ الصحفيون عليهما الوجوم، وأن‌تلك الحرارةالتى كانت باديه‌عليهما فى أول استقبال قد فترت كثيرا عما قبل • وكان من المفروض أن يسافرا معا الى كييفـ ، ولكن خروشوف اعتذر فى اللحظة الاخيرة ،بحجة أنه يحس ألما شديدافى أسنانه• وقد كتبت الصحف‌البريطانية بأن اعتذارخروشوف من عدم اصطحاب‌ماكميلان الى كييف‌اهانة شخصية لرئيس‌وزراء بريطانيا، وطالبت بأن يلغى ماكميلان زيارته الى كييف ولينينجراد وأن يعود أدراجه الى لندن • ولكن ماكميلان ذهب لزيارة لينينجراد حيث وجد فى استقباله ميكويان الذى حضر خصيصا من موسكو لاستقباله • ولم يظهر ماكميلان أى استياء أو شعور بالكرامة المجروحة ، وهكذا مر الحادث بسلام وتحسن الجو ، وهذا مما ساعد على تجديد المحادثات مع خروشوف فى موسكو •

ولقد ألقى ماكميلان عدة خطابات أعلن فيها عن رغبتـه فى أن تكون العلاقات بين بريطانيا والاتحادالسوفييتى ودية، وشرب أنخابا كثيرةتدل على أنه كان حقيقة يعنى ما يقول • وكان أهم خطاب يدور حول هذا المعنى، ذلك الذى القاه فى السفارة البريطانية بموسكو فى مأدبة أقامهـا تكريما لخروشوف •

وقد وجه ماكميلان حديثه فى‌هذا الخطاب الى‌خروشوف‌قائلا : سيدى رئيس الوزراء : لقد شهدت بنفسى جهودكم العظيمة فى بنـاء اقتصاديات الاتحاد السوفييتى ، ولشد ماأعجبنى المامكم بتفاصيل المشروعات‌والبرامج التى أنتم بسبيل تنفيذها • وان هذا لهو حقا برنامج انشائى عظيم ،وان آفاق المستقبل‌لتبدو أمام الاتحاد السوفييتى‌فسيحة وواسعة• لقد شاهدت الافران العالية يرتفع لهبها عاليا فى سماء الاتحاد السوفييتى وفوق ما كان من قبل أرضا مقفرة ، ليعلن هذا اللهب للعالم أن هذه أرض المستقبل • وليس ما أقوله سرابا أو خيال شاعر ، ولكنه الحقيقة الواقعة • ان السرعة التى تم بها تقدمكم الصناعى شىء غير عادى لا مثيل له فى التاريخ •

ورد عليه‌خروشوف مثنيا‌على‌أعماله‌كوزير للاسكان‌ووزيرا للخارجية وزيرا للمالية ، وهكذا ذهب كل من الرجلين شوطا بعيدا فى اضفاءالثناء على الآخر ، حتى لقد شك الصحفيون فى أن ما قيل فى هذه الليلة كان كله صالحا للنشر • ولكن السفارة البريطانية فى موسكو أباحت‌للصحفيين‌نشر كل ماكتب، حتى ماقيل من أن سهول الاتحاد السوفييتى هى « أرض المستقبل » • ولقدقلق‌بعض الصحفيين عما سوف يكون‌عليه صدى‌خطاب

ماكميلان فى صفوف المحافظين فى بريطانيا ، وأظهر آخرون خوفهم مما سوف يكون لهذا الخطاب من رد فعل عنيف فى بون، وباريس ،وواشنطون.

وهكذا بدا أن « ألم أسنان » خروشوف قد زال ، ولذلك عاد الى الحديث مرة ثانية عن ميثاق عدم الاعتداء بين موسكو ولندن ، فقال فى حديثه مع ماكميلان :

لقد اقترحنا توقيع اتفاق عدم اعتداء بين الاتحاد السوفييتى وبريطانيا اعتقادا منا بأن ذلك سوف يتيح الفائدة العظمى لشعبينا وللسلام العالمى. وطبقا لهذا الاتفاق يكف كل من البلدين عن توجيه أى نوع من الهجوم للبلد الآخر ، كما يعلن الطرفان أنهما لن يلجآ الى استخدام القوة بعضهما ضد البعض . ويتضمن مثل هذا الاتفاق ألا يسمح أى من البلدين بانشاء قواعد أجنبية على أراضيه ، وأن تتخذ الاجراءات اللازمة لازالة القواعد الاجنبية القائمة فعلا .

وتقتضى روح الميثاق بأن أى خلاف بين البلدين ، مهما تكن درجته ، لا بد أن يسوى بالطرق السلمية والتفاهم المتبادل ، وذلك باجراء محادثات طبقا لميثاق الامم المتحدة . واعتقادنا أن هذا سوف يلقى ترحيبا حارا من الشعبين البريطانى والسوفييتى .

وقد رد ماكميلان على هذا الخطاب ولكنه تحاشى الخوض فى الحديث عن ميثاق عدم الاعتداء واكتفى بأن قال :

ان ردى على ميثاق عدم الاعتداء الذى تقترحونه (يلاحظ القارىء هنا كذب ماكميلان لان اقتراح ميثاق عدم الاعتداء كان صادرا منه أصلا فى حديث اذاعى سبق أن وجهه الى الشعب البريطانى) هو أنى على استعداد للموافقة فورا على ما يلى :

١ ــ أن بريطانيا على استعداد للعمل طبقا لميثاق الامم المتحدة نصا وروحا فى كل نزاع يثار بين البلدين .

٢ ــ لا ينبغى لاى من البلدين أن يسعى من جانبه الى الاضرار بما للبلد الآخر من حقوق والتزامات ومصالح حيوية .

٣ ــ طبقا لهذين المبدأين فان الحكومة البريطانية توافق على أن كل نزاع يجب أن يسوى بالمفاوضات ، لا بالقوة .

٤ ــ من المسلم به أن مثل هذا الاتفاق لا ينبغى أن يتعارض مع تمسك كل منا التام بحلفه الدفاعى ، الى أن يجىء اليوم الذى يستغنى فيه العالم عن مثل هذه الاجراءات الوقائية .

وكان ماكميلان يقصد بعبارته الاخيرة بعث الاطمئنان الى بون وباريس وواشنطون ، وقد صرح فى حديث اذاعى قائلا :

سوف نبدأ بميثاق عدم اعتداء ؛ وهذا ليس شيئا جديدا ، ولن يترتب عليه أى ضرر بل انه على العكس سوف يكون محمود العاقبة .

هكذا يرى القارىء أن ماكميلان أعلن أنه سوف « يبدأ » أى أنه سوف

يتخذ الخطوة الاولى نحو عقد ميثاق عدم اعتداء ، ولكن لا ندرى ما الذى قاله لخروشوف من وراء ستار حتى أصابه « ألم الاسنان » ! .

وحينما عاد الى لندن ألقى خطابا قال فيه ان بريطانيا فى أشد الحاجة الى السلام ، لانه هو السبيل الوحيد الى تنمية تجارتها الخارجية . ومن ثم الى رخائها ، واعترف بأن هناك خلافات كبيرة بين الاتحاد السوفييتى وبريطانيا ولكنه أكد أن هدفهما واحد ، وهو الحيلولة دون نشوب حرب عالمية ثالثة .

ولاشك فى أن ماشاهده فى موسكو وكييف ولينينجراد قد خلفأثرا عميقا فى نفسه وبخاصة أنه كان قد زار الاتحاد السوفييتى منذ ثلاثين سنة . ولذلك فهو يستطيع ادراك التقدم الهائل الذى حققه الاتحاد السوفييتى فى هذه الحقبة .

ولقد زار ماكميلان الجامعة الجديدة على مرتفعات لينين ، ولما سأل مديرها : كم عدد طلبه الجامعة ؟ أجاب المدير بأن بها عشرة آلاف طالب نظامى ، وضعف هذا العدد من غير النظاميين والمنتسبين ، وأن جميع الطلبة يتكلمون الانجليزية .

وقد أتاح المسئولون السوفييت الفرصة أمام ماكميلان لمشاهدة أكبر قدر من التقدم الذى أحرزه الاتحاد السوفييتى ، فزار دوبنا ، حيث أنشىء معهد الابحاث النووية. وقدأطلعه المشرفونعلى المعهد على خمسةأقسام، وهى قسم الابحاث النووية ، وقسم الطاقة العليا ؛ وقسم الطبيعة النظرية، وقسم الطبيعة النيوترونية ؛ وقسم المفاعلات النووية ، وما أن خرج ماكميلان من المعهد حتىكان على يقين من أنالاتحاد السوفييتى فىمقدمة دول العالم فى الابحاث النووية .

وفى أثناء وجوده فى كييف زار احدى المزارع الجماعية ، واطلع على سير العمل فيها وعلى انتاجها الزراعى. وحينما زار لينينجراد أطلعه الاميرال يوجدنكو على محطمة الجليد الذرية « لينين » وهى أول محطمة جليد ذرية فى العالم .

وحينما قاربتزيارة ماكميلان للاتحادالسوفييتى نهايتها ظهرمشكل جديد ، ذلك أن خروشوف كان يريد أن يضمن البيان المشترك اشارة الى ميثاق عدم الاعتداء ، فى حين كان ماكميلان يعمل على تجنب ذكر الميثاق ، خشية أن يكون فى ذلك ما يغضب أمريكا وفرنسا والمانيا الغربية ؛ وأخيرا تم الاتفاق على بيان مشترك أولى به أن يوضع فى « سراديب المتحف الدبلوماسى » اذ كان كله تمنيات حول نزع السلاح ، ومنع التجارب النووية ، وأملا فى حل مشكلة برلين .

وبسببفشل المحادثات فىالوصول الى حلول محددة لهذه المشكلات الكبرى فقد اعترفا فى البيان بالحاجة الماسة الى اجراء محادثات مبكرة بين الدول صاحبة المصالح لتسوية ما بينها من خلافات ، اذ أن مثل هذه المحادثات سوف تكون أساسا للامن الاوروبى . كذلك أعلنا اتفاقهما على مواصلة البحث فى موضوع تعزيز الامن ، وذلك بتحديد القوات والاسلحة

التقليدية والنووية فى منطقة أوربية يتفق عليها ، وأن يقترن ذلك بالاتفاق على انشاء نظام للتفتيش .

وتضمن البيان اشارة الى موافقة الطرفين على التبادل الثقافى بين بريطانيا والاتحاد السوفييتى ، على أن يقوم وزير بريطانى بزيارة قريبة لموسكو للبحث فى الامكانيات اللازمة لمضاعفة التجارة بين البلدين .

وأتيحت الفرصة أمام ماكميلان كى يوجه حديثا فى التليفزيون للشعب السوفييتى ، ومما هوجدير بالذكر أن التليفزيون شائع الاستعمال هناك ، وأن عشرات الملايين من الاجهزة موزعة على المدن بل القرى السوفييتية . وقد استهل ماكميلان حديثه الى الشعب السوفيتى بوصف أسلوب الحياة فى بريطانيا ، وكيف ان الحياة فيها قد تغيرت تغيرا تاما عما كانت عليه فى عهد ديكنز ممثلة فى قصة « أوليفر تويست » وذكر الارقام الضخمة التى تنفقها بريطانيا على الآلات الزراعية والسيارات والمساكن وأجهزة المنازل ، ثم تحدث عن الجامعات البريطانية وعدد طلبتها . كذلك ذكر ماكميلان أن مستوى المعيشة فى بريطانيا أعلى منه فى أى بلد أوروبى آخر .

ولم يفته أن يتحدث عن الحياة الروحية قائلا ان الانسان لا يحيا بالمادة وحدها ، بل لا بد من توازن بين الحياة المادية والحياة الروحية ، وان البريطانى يأخذ من كل منهما بنصيب، وأخيرا فان الدولة تعيش من أجل الفرد ، وليس يعيش الفرد من أجل الدولة .

هكذا عاد ماكميلان الى انجلترا وكأنه رجل السلام ، فهتف له المحافظون فى مجلس العموم وكذلك هتفت له المعارضة ، وكانت هذه الرحلة حركة بارعة من ماكميلان وبخاصة أنه مقبل على الانتخابات العامة .

ولننتقل الآن الى جانب آخر من الصورة لنجد نقدا عنيفا موجها الى ماكميلان ، من بون وباريس وواشنطون ، بسبب رحلته الى موسكو ، وأصبح لزاما عليه أن يزور العواصم الثلاث ليشرح وجهة نظره . وما تم فى رحلته الى موسكو .

والذى أثار العواصم الثلاث، وبخاصة برلين، هو ما أشار اليه البيان المشترك من قبوله لفكرة انشاء منطقة منزوعة السلاح فى أوربا ، وهذا يذكرنا بمشروع راباكى لانشاء منطقة منزوعة السلاح فى أوربا الوسطى ، وهو المشروع الذى قبله الاتحاد السوفييتى ورفضته فرنسا والمانيا الغربية والولايات المتحدة .

ولقد كتب مراسل «التايمز» فى باريس أن ماكميلان ووزير خارجيته سلوين لويد حينما زارا باريس ، لتوضيح موقفهما من مشروع المنطقة المنزوعة السلاح ، وجدا مشقة كبرى فى اقناع المسئولين الفرنسيين بوجهة نظرهما ، وقال ماكميلان انه لم يقصد مطلقا انشاء « فراغ » فى وسط أوربا ، وان ماقصده ليس مشروع راباكى ، بل المشروع الذى اقترحه ايدن عام ١٩٥٥ ، وهو الذى يقضى بتحديد الاسلحة والقوات العسكرية فى منطقة يتفق عليها ، على أن يقترن ذلك بنظام محكم للتفتيش .

وعلق مراسـل « التايمز » على زيارة ماكميلان لبـاريس قائلا : انه رئيس الوزراء فشل فى اثارة اهتمام المسئولين فىفرنسا بزيارتهلموسكو. واذا كانت الدوائر الرسمية لم توضحموقفها توضيحا تاما من هذه الزيارة فان الدوائر غير الرسمية قد أوضحت موقف فرنسـا بما لا يدع مجـالا للشك . ذلك انفرنسوا بونسيه، سفير فرنسا السابق فىالمانيا الغربية، كتب مقالا فى جريدة « الفيجارو » قال فيه انزيارة ماكميلان لموسكو تشبه زيارة تشمبرلين لميونيخ .

وهناك نقطةأخرى قد تعتبر شخصية، وهى أن ديجول استاء منأن ماكميلان قد اتخذ لنفسه « مركز الزعامة فى الغرب » .

أما أديناور فقد ألقى خطابا أقل ما يقال عنه أنه « فاتر » وقد استنكر فيه موافقة ماكميـلان على أنه « يجب عمل شىء » فى موضـوع الاعتراف بالمانيا الشرقية ، قائلا ان هذا لم يكن متوقعا من ماكميلان .

أما الصحافة الامريكية فقد وجهت سيلا من النقد الى ماكميلان ، فقد انكرت عليه صحيفة « نيويورك تايمز » اتخاذه دورا أساسيا فى معـاملة الغرب للاتحاد السوفييتى وأنه كان يحاول استرضاء موسكو .

وحينما زار ماكميلان واشنطون ألح على ايزنهـاور فى قبول اقتراح عقد مؤتمر الاقطاب ، وأكد له أنه لم يفكر مطلقا فى استرضاء السوفييت.

وكتبت مجلة «تايم» أنه عقد اجتماع هام فى منزل ريتشارد نيكسون نائب رئيس الجمهورية فى عهد ايزنهاور ، واشترك فى هذا الاجتماع كبار رجال الكونجرس الامريكى ، الذين شددوا الخناق على ماكميلان بشأن زيارته للاتحاد السوفييتى . وقد رد ماكميلان على هؤلاء قائلا : اننى مصمم على عقد مؤتمر للاقطاب لتخفيفحدة التوتر بين الشرقوالغرب. ليس فى استطاعتى أن أذهب الى الملكة لا طلب اليها الموافقة على اجلاء ملايين النســاء والاطفـال والمسنين عن دورهم وارسـالهم الى بلاد الكومنولث الا بعد أن استنفد كل وسيلة للتفاهم .

وقد اتهمه كثير من أعضاء الـكونجرس ، وخاصـة ستيل بروجز ، وجون ماك كورماك ؛ بأنه يسترضى الاتحاد السوفييتى. وهنا ثار ماكميلان قائلا : أنا لست نيفـل تشمبرلين ، وأعلن لـكم أنى أول من يكره كلمـة « استرضاء » .

وعلى أية حال فقد وافق بعض أعضاء الكونجرس على موقف ماكميلان، وبخاصة السناتور هربرت همفرى ، والسناتور ليفريت سالتونستول ، أما ايزنهاور وكثيرون من كبار المسئولين فقد كانوا مترددين فى قبولعقد مؤتمر للاقطاب من غير أن يسبق ذلك مؤتمر تمهيـدى على مسـتوى وزراء الخارجية .

والذى يستخلص من موضوع رحلة ماكميـلان الى موسكو أنهـا اذا كانت قد أثارت ضده باريس وبرلين ، وقوبلت بكثير من الشك والتردد فى واشـنطون ، فقـد رحب بها الشـعب البريطانى وكانت سـندا قويا لماكميلان فى الانتخابات التالية .

بيع رئيس الوزراء

قبل الانتخابات العامة الاخيرة في بريطانيا في أكتوبر ١٩٥٩ ، كان المحافظون قد أعدوا حملة قوية منظمة للدعاية ، وانفقت الشركات الكبرى مبالغ ضخمة على الاعلان ، سواء في الصحف أو باللافتات أو بأية وسيلة من وسائل الاعلان رآها الخبراء الذين استأجرهم حزب المحافظين . وكان من بين وسائل الاعلان صورة ضخمة لهارولد ماكميلان وهو يطل من عل على الشعب الانجليزي من أقصى البلاد الى اقصاها ، وقد قدر « بتلر » ما أنفقه حزب المحافظين على الدعاية للانتخابات فيما بين عامي ١٩٥٧ و ١٩٥٩ بما لا يقل عن ٤٦٨ ألف جنيه استرليني ، وكان من بين وسائل الاعلان توزيع ٢٥٠ ألف حديث مسجل لماكميلان على مختلف الدوائر الانتخابية . وقد علق كروسمان على ذلك قائلا : « ان رئيس الوزراء كان يوزع على الجمهور في بريطانيا كما توزع أدوات التنظيف » !

وعلق جوردون ووكر ، في احدى جلسات مجلس العموم ، على هذا الحادث قائلا : ان شركة كولمان وفارلي للاعلان كانت تعد صور ماكميلان « وتبيعه » كما تفعل ببقية اعلاناتها عن السلع الاخرى سواء بسواء مثل الشيكولاته وشاي ليونز وغيرها . والشيء الغريب في ذلك هو قيام شركة اعلانات ببيع رئيس وزراء بريطانيا وبيع حزب المحافظين بل بيع الآراء السياسية كأنها بضائع معبأة ، وكأن بريطانيا قد صبت في قالب أمريكي .

ولم يكن في تعليق جوردون شيء من المبالغة ، فقد سبق لحزب المحافظين أن بعث دونالد كابيري ، نائب رئيس الحزب ؛ الى أمريكا ليدرس أحدث وسائل الاعلان التي استخدمت في انتخابات الرياسة الامريكية .

وقد كان لفوز المحافظين في الانتخابات رنة فرح عظيمة بين صفوفهم ، فارتفعت أسعار البورصة ، واطمأن ملوك الصناعة البريطانية وكبار رجال الاعمال على أن مقعد وزير المالية الجديد لن يشغله رجل يصدر تشريعات تعوق ما هم جادون فيه من جمع للثروة وتكديس للاموال .

ولما اطمأن ماكميلان الى أنه قد ثبت مركزه في البرلمان اتجه الى ناحية أخرى وهي الناحية الدولية ، فأراد أن يحرز فيها من النصر ما أحرزه في الانتخابات البريطانية العامة .

كان ماكميلان يسعى الى عقد مؤتمر للاقطاب يضم أمريكا وفرنسا وبريطانيا والاتحاد السوفييتي ، وقد استشعر الارتياح حينما تمت الموافقة على عقد هذا المؤتمر في باريس . وكان ماكميلان قد مهد لهذا المؤتمر بالمحادثات التي أجراها مع خروشوف حين زيارته لموسكو ، ولذلك فان الموافقة اذا تمت على ما جرى الحديث بشأنه في موسكو لأصبح ماكميلان رمز السلام العالمي . وكانت المقدمات تبعث على التفاؤل ، فقد سافر خروشوف قبل ذلك في رحلة طويلة الى أمريكا استطاع في خلالها أن يذيب بعض ثلوج الحرب الباردة الكثيفة ، ويبعث بعض التحسن في

العلاقات بين أمريكا والاتحاد السوفييتي. ولما أعلن رسميا انه قد تحدد شهر مايو ١٩٦٠ موعدا لانعقاد مؤتمر الاقطاب فى باريس تنفس العالم الصعداء وأخذ يترقب تفريج الازمات العالمية .

وهنا بدأت أسهم شركات الاسلحة الكبرى في أمريكا فى الهبوط ، وأخذ كبار الماليين فى وول ستريت يتساءلون : ماذا يكون الموقف لو قدر لمؤتمر الاقطاب النجاح ؟

ولكن سقطت فجأة من السماء صاعقة ، ذلك أن احدى طائرات التجسس الامريكية كانت فى طريقها من باكستان الى النرويج فأسقطها السوفييت فوق أرضهم قرب مدينه سفرولوفسك . وقد احتج خروشوف في غضب وعنف قائلا ان هذا التجسس يتعارض مع جميع نصوص القانون الدولى ، وازداد الموقف سوءا حينما فسر الامريكيون الموقف بأنها طائرة أمريكية ضلت طريقها . فقد أثبتت الوثائق ، التى عثر عليها السوفييت ، ان الطائرة كانت تتجسس فوق أراضيهم ؟ وهنا أدرك العالم كله مدى مافى البيان الامريكى من كذب .

ولا ندرى ما علق به ماكميلان على هذا الحادث ، ولكن المهم أن الحادث حطم آماله تحطيما نهائيا .

كذلك لا ندرى أآنس ماكميلان من نفسه الجرأة على الاتصال بواشنطون والاحتجاج عليها لهذا العمل أم لا ، ولكن المؤكد ان ماكميلان لم يلق بيانا عنيفا ضد أمريكا فى مجلس العموم البريطانى . واذا كان قد سب أمريكا ولعنها بينه وبين نفسه أو بينه وبين الصفوة من أصحابه، فانه فى المواقف العامة قد التزم جانب الدبلوماسية الدقيقة والمجاملة ، ولعله كان يخشى أن يؤدى الامر الى عدم انعقاد مؤتمر الاقطاب ، ولم يطمئن قلبه الا حينما صدر اعلان من الكرملين بأن خروشوف سوف يشترك فى مؤتمر الاقطاب .

هنا بدأ ماكميلان يسترد أنفاسه، وأخذ يراوده الامل بأن يكون حكما ومصلحا بين الطرفين .

ذهب ماكميلان الى باريس ولديه أمل قوى فى عمل شىء يحقق له المجد ، ولكن خروشوف حطم أمله مرة ثانية بتقديم شروط قاسية لم يقبلها ايزنهاور ، منها أن يقدم ايزنهاور اعتذارا رسميا وضمانا بألا تحلق طائرات التجسس « ى ـ ٢ » فى سماء الاتحاد السوفيتى ومنها أيضا معاقبة المسئولين عن الحادث .

وقد أخذ ماكميلان يتردد بين الطرفين محاولا اصلاح ذات البين ، ولكنه فشل فى محاولته ، كما أن مؤتمر الاقطاب كان أكبر فشل دولى منذ الحرب العالمية الثانية .

وهكذا عاد ماكميلان الى مجلس العموم حزينا كاسف البال ، اذ أن أمنيته الكبرى فى تحقيق نصر دولى قد تحطمت .

ريح التغيير تهب على أفريقيا

لما تولى هارولد ماكميلان رياسة الوزارة قرر أن يزور فى خلال توليه هذا المنصب أكبر عدد من بلاد الكومنولث ، ففى أواخر عام ١٩٥٨ زار الهند وباكستان وسيلان واستراليا ونيوزيلندة • وفى أواخر عام ١٩٥٩ قام برحلة الى افريقيا زار فى خلالها غانا ونيجيريا واتحاد افريقيا الوسطى (اتحاد روديسيا ونياسالاند) واتحاد جنوب افريقيا • ولم يكن هدفه من هذه الزيارات حل مشكلات معينة قائمة بين المملكة المتحدة وبلاد الكومنولث، فهذه يترك أمرها الى المسئولين كل فى دائرة اختصاصه، ولكنه كان يرى أن زيارة رؤساء وزراء بلاد الكومنولث لندن فى مؤتمرهم السنوى لا ينبغى أن يكون عملا من جانب واحد ، بل يجب على رئيس وزراء بريطانيا أن يشاهد بنفسه مختلف بلاد الكومنولث وما يجرى فيها وما حققته من تقدم، ونحن نقر وجهة نظره هذه، فهى خطوة من جانبه تستحق التقدير والثناء

وقد كانت كل الظواهر تشير الى أن زيارات رئيس وزراء بريطانيا لعواصم الكومنولث كانت موضع تقدير كبير فى هذه العواصم ، وهو من جانبه صرح بأن قضاء بضعة أسابيع فى بلاد الكومنولث ليس معناه أنه ألم بجميع مشكلاتها ، ولكن هذه الزيارة أكسبته شيئا هاما ، وهو الشعور القوى بأن بلاد الكومنولث عامل قوى من عوامل السلام والتقدم فى العالم فى وقتنا الحاضر •

ولم يمض عام وبعض العام على هذه الزيارات حتى وقف ماكميلان يواجه التجربة الكبرى ، وهى المفاضلة بين الكومنولث والسوق الاوربية المشتركة . ولنا أن نتساءل هنا : الى أى حد كان ماكميلان على استعداد للتضحية بالسوق المشتركة فى سبيل الاحتفاظ بالكومنولث ؟

لقد شهد بنفسه حين زيارته لغانا ، شهد مدى ما حققته هذه البلاد من تقدم اقتصادى وسياسى واجتماعى ، كذلك أدرك ما ساهم به الاوربيون من نصيب كبير فى هذا التقدم ، وما يبدو أنهم سوف يساهمون به فى المستقبل ، وما تشعر به غانا من ود حقيقى نحو بريطانيا •

وفى نيجيريا ألقى خطابا ، فى أول اجتماع للبرلمان ، على أثر الاتفاق مع بريطانيا على اعلان استقلال نيجيريا ، وأدرك ما تنتظره نيجيريا من مستقبل زاهر وبخاصة بعد اكتشاف البترول وتطوير الزراعة فيها •

وفى اتحاد روديسيا ونياسالاند أجرى محادثات طويلة مع رئيس وزراء الاتحاد ومع رئيس وزراء روديسيا الجنوبية ومع حاكم نياسالاند ومع عدد كبير من زعماء مختلف الهيئات السياسية فى البلاد ، ولكنه مع ذلك لم يستطع أن يكون صورة كاملة ، فهو مثلا لم يجتمع مع الدكتور هاستنجز باندا ، الذى كان لايزال فى السجن .

وقد ألقى ماكميلان خطبا كثيرة ، ولكن أهم خطاب ألقاه وكان له صدى

قوى فى اجزاء كثيرة من العالم ، هو الخطاب الذى ألقاه فى برلمان جنوب افريقيا فى ٣ من فبراير ١٩٦٠ • وقد بدأ ماكميلان خطابه هذا الطويل بنبذة عن جنوب افريقيا وعلاقاتها ببريطانيا ووسيلة التعاون بين البلدين وكيف انهما عملتا معا باخلاص فى حربين عالميتين ، كما تحدث عن الروابط الاقتصادية الوثيقة التى تمت بين البلدين طوال نصف القرن الماضى •

وتحدث بعد ذلك عن موجة القومية التى عمت البلاد الافريقية فى الآونة الاخيرة وقال : ان نمو الوعى القومى بين الافريقيين حقيقة قائمة لابد من الاعتراف بوجودها وليس فى وسعنا الا أن نقبلها ، وأقصد بذلك ، انه لابد لنا من أن نكون معها على وفاق • واعتقادى أننا اذا اعترضنا طريقها فكأننا بذلك نبعث مزيدا من الخلل فى التوازن المضطرب القائم الآن بين الشرق والغرب ، وهو التوازن الذى يتوقف عليه السلام العالمى •

ان العالم اليوم مقسم الى مجموعات ثلاث كبرى ، وهى المجموعة الغربية أو ما نسميه بلاد العالم الحر وهذه تشمل أوربا الغربية وأمريكا وبعض بلاد الكومنولث، والمجموعة الثانية هى الدول الشيوعية التى تضم الاتحاد السوفييتى وتوابعه والصين، وهناك مجموعة ثالثة فضلت عدم الانحياز الى الشرق أو الغرب • والموضوع الهام الذى سوف يشغل العالم كله فى النصف الثانى من القرن العشرين هو موضوع هذه البلاد غير المنحازة ، وهل يستقر بها المقام أخيرا على الاتجاه نحو الشرق أو نحو الغرب •

ان الصراع اليوم ليس صراعا ماديا بقدر ما هو صراع لكسب عقول الرجال ، وليست لدينا القوة العسكرية ولا المهارة الدبلوماسية ولا الكفاية الادارية الكافية لاحراز النصر فى هذه المعركة » انما سلاحنا هو أسلوب حياتنا • والبلاد غير المنحازة تقف موقف المتفرج على الشرق والغرب ، ولها بعد ذلك أن تختار •

هنا يقف ماكميلان متسائلا : لقد ذكرت ان جنوب افريقيا بين بلاد « العالم الحر » فهل هى حقيقة بلاد يرفرف عليها علم الحرية ويتمتع العشرة ملايين افريقى الذين يعيشون هناك بحقوقهم الكاملة كمواطنين ؟

قد يعتبر تساؤلى هذا تدخلا فى الشئون الخاصة لاحد بلاد الكومنولث ومبدؤنا فى هذه الرابطة الدولية ألا يتدخل أحدنا فى شئون الآخر الخاصة به • ولكن الشئون الخاصة ببلد قد يكون لها أحيانا رد فعل خارج هذا البلد • واذا كانت الحكمة القديمة هى : « كن فى حالك » فحكمة العصر الحاضر هى : « كن فى حالك بشرط الا يؤثر ذلك على حال الآخرين » • وأود أن أصارحكم القول بأن مسئوليتنا فى البلاد التى تولينا حكمها لم تكن مجرد رفع مستوى المعيشة وكفى ، وانما أن نخلق أيضا مجتمعا تحترم فيه حقوق الأفراد وتتاح فيه الفرصة أمام كل فرد لكى ينمى فرديته بحيث تصل الى مداها الكامل ، ومعنى ذلك أن يحصل الفرد على نصيبه من تحمل المسئوليات السياسية والاقتصادية فى بلده •

هكذا أنهى ماكميلان خطابه فى صراحة ووضوح بحيث لم يكن هناك مجال للشك فيما يهدف اليه • وكان لهذا الخطاب التاريخى صدى بعيد

المدى تجاوز جنوب افريقيا الى القارة كلها ، ثم عبر الصحارى والبحار الى كل شعب ملون يريد أن يتخذ مكانه اللائق تحت الشمس . وأخذالقراء يتساءلون فى كل مكان : متى تهب ريح التغير فتكتسح جنوب افريقيا ؟ ان الدكتور هيستنجر باندا فى سجنه فى نياسالاند ، وجومو كينياتا فى سجنه فى كينيا ، فمتى تصل نسمات هذه الريح الى سجنيهما ؟ ان المقام لن يطول بهما !

السير فى ركاب أمريكا

حين اجتماع البرلمان فى نوفمبر ١٩٦٠ كانت الحكومة قد قررت الموافقة على منح الغواصات الامريكية، التى تحمل قذيفة « بولاريس » قاعدة فى هولى لوتش باسكتلندة . واذا ما قارنا هذا الموقف الذى اتخذته الحكومة البريطانية بموقف ديجول حينما رفض بقاء القاذفات الامريكية فى فرنسا الا اذا اشترك الفرنسيون فى الاشراف عليها ، لتبين لنا ان بريطانيا كانت جد مستسلمة لأمريكا . وبخاصة أن ديجول ، فى محادثاته مع المسئولين الامريكيين بشأن قواعد للقاذفات الامريكية ، ذكرهم بأن القواعد فرنسية وعلى أرض فرنسية ، واذن فمن الطبيعى أن توضع هذه القاذفات تحت اشراف فرنسى كامل ، لا تحت اشراف وزارة الدفاع الامريكية .

ولما ووجه ماكميلان بكثير من الأسئلة فى مجلس العموم ، ألقى بيانا قال فيه ان بريطانيا تلقت العرض الامريكى باتخـاذ قاعدة لغواصاتها الذرية ، فى أواخر عام ١٩٥٩ ، ثم جرت محادثات بينه وبين ايزنهاور فى هذا الموضوع حين اجتماعهما فى كامب دافيد فى مارس ١٩٦٠ ، واستمرت المحادثات بشأن النواحى الفنية والسياسية المرتبطة بهذا الاجراء حتى أكتوبر .

لقد كان فى بريطانيا قواعد جوية أمريكية فى ذلك الوقت ، ولكن الموافقة على منح أمريكا قاعدة بحرية للغواصات ، تحت اشراف أمريكى ، يعتبر اجراء من نوع جديد ، وقد طولب ماكميلان بنشر كتاب أبيض عن المحادثات التى تمت بشأن هذا الموضوع بين الحكومتين البريطانية والامريكية فرفض .

ان هولى لوتش ، وهى الموقع الذى اختير ليكون قاعدة لغواصة « بولاريس » يقع على نهر الكلايد على مسافة عشرين ميلا من جلاسجو ، ولذلك فان الاسكتلنديين لما علموا بالموافقة على انشاء القاعدة رفعوا أصواتهم عالية بالاحتجاج ، وقدم مؤتمر نقابات العمال فى اسكتلندة ، ومجلس حزب العمال والسلطات المحلية ، احتجاجات شديدة مطالبين بتغيير موقع القاعدة .

ولم تقتصر المسألة على مجرد احتجاج بعض الهيئات ، بل ان القرار الذى اتخذته بريطانيا بالموافقة على انشاء قاعدة لغواصات « بولاريس »

الامريكية على أراضيها أو في مياهها أثار المشكلة الكبرى ، وهي أن أمريكا تتخذ من بريطانيا قاعدة رئيسية لاستراتيجيتها فى أوربا الغربية ٠

ان فى مدينة جلاسجو وحواليها ما يزيد على مليونين من السكان ، وهؤلاء سوف يتعرضون لأشد الأخطار اذا نشبت حرب نووية وقام السوفييت بمهاجمة القاعدة ، والاسكتلنديون يذكرون جيدا أن القاذفات البريطانية فى الحرب الماضية طارت الى سواحل اسكتلندة لمهاجمة الغواصات الالمانية ٠ وقد قدر الخبراء أن قنبلة هيدروجينية واحدة كافية لتدمير غرب اسكتلندة كله ، فما بالك اذا اتخذت هولى لوتش قاعدة لأخطر غواصة ذرية امريكية وهى غواصة بولاريس .

وفى فترة الاسئلة وجه الاميرال جون وجديل سؤالا الى ماكميلان عما اذا كانت أمريكا قد طلبت من بعض دول حلف الاطلنطى الاخرى منحها قواعد ٠ وقد حاول ماكميلان ان يهرب من الاجابة ، ولكن الاميرال الح عليه ، فرد قائلا : ان موافقتنا على انشاء هذه القاعدة فى صالحنا وفى صالح أمريكا وفى صالح حلف الاطلنطى كله ، وعلى أية حال فسؤال العضو المحترم خارج عن الموضوع ٠

ولكننا نرى أنه سؤال فى صلب الموضوع ، فلماذا لم تحاول أمريكا أن تتخذ قواعد على سواحل النرويج مثلا ، وهى أكثر صلاحية من سواحل اسكتلندة لمثل هذا النوع من الغواصات ؟ واذا كانت النرويج غير مستعدة لاجابة مثل هذا الطلب الامريكى فلماذا قبلته بريطانيا ؟ ثم ما مدى اشراف الحكومة البريطانية على تحركات غواصات « بولاريس » الامريكية ؟ .

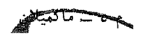
فى ١٧ من ديسمبر أعلنت حكومة النرويج أنها قررت رفض تخزين الاسلحة النووية فى بلادها ، وانها لم تتخذ هذا القرار الا بعد البحث الدقيق وتقدير جميع الاحتمالات ٠ والآن يقف ماكميلان أمام مجلس العموم ليعلن فى غموض وابهام بأنه مقتنع بأن قذائف « بولاريس » التى تحملها الغواصات الذرية لن تستعمل الا بعد المشاورات « الممكنة » مع الحكومة البريطانية ! ٠

ولكن مامعنى كلمة «ممكنة» هذه وما حدودها ؟ أضف الى ذلك أن البيان الذى ألقاه ماكميلان فى مجلس العموم أثار الدهشة فى أمريكا ، فبادرت الحكومة الامريكية باصدار بيان مضاد أكدت فيه أن الاشراف على غواصات « بولاريس » سيظل من اختصاص الحكومة الامريكية وحدها.

وحينما طلب من واتكنسون وزير الدفاع أن يلقى بيانا على الرد الأمريكى قال : أعتقد أن سوء التفاهم نشأ من أن كلمة «الممكنة» الواردة فى بيان رئيس الوزراء (ماكميلان) قد حذفت من النص المنقول لامريكا ٠

ولكن اذا كان حذف كلمة واحدة قد أثار سوء التفاهم بين بريطانيا وأمريكا ، فهل من غير المحتمل أن يحدث خطأ فى تفسير أية رسالة بين واشنطون وغواصة « بولاريس » تعمل فى المحيط المتجمد الشمالى ؟

ولم يقف استنكار هذا الاجراء الذى اتخذه ماكميلان عند حد



المعارضة البرلمانية فقط ، بل ان صحيفة «سكوتش صنداى» نشرت مقالا افتتاحيا تحت عنوان «الاتفاقيةالمذلة» قالت فيه ان موافقة بريطانيا على هذه القاعدة لابد أن تورطها فى حرب نووية مع الاتحادالسوفيتى، ولو أن أمريكا عرضت هذا الاتفاق المذل مع أتفه جمهورية تحت وصايتهـا فى أمريكا اللاتينية لرفضت قبوله ٠

ولنعد الى ماكميلان فنقول ان موافقته على انشاء قاعدة فى المملكة المتحدة لغواصات «بولاريس» زاد من حدة التوتر الدولى الى درجة كبيرة وكأن ماكميلان بعمله هذا يناقض ماأخذ به نفسه من الدعوة الى السلام ٠ وليس أدل على التوتر الذى أثاره عمل ماكميلان هذا من الخطاب الذى ألقاه كوزلوف فىموسكو بتاريخ ٦ نوفمبر ، اذ قال ان ماكميلان الذى كثيرا مادعا الى اجراء مفاوضات من أجل السلام ، يعمل اليوم على تقويض دعائم السلام ، وهذا أكبر دليل على أن دعوته للسلام كانت زائفة .

ومضى كوزلوف يقول : ان ماكميلان فى اثناء وجـوده فى أمريكا لحضور الدورة الخامسة عشرة للجمعية العامة للأمم المتحـدة ، كان يقوم بدور المنافق ، فهو يجتمع مع الامريكيين لوضع الاسس التى بموجبهـا تنشأ قاعدة للغواصـــة الذرية الامريكية «بولاريس» ثم يجتمع بالوفد السوفييتى زاعما أن الحاجةملحة لاجراء مفاوضاتلحل المشاكلالدولية

لقد كانت حجة ماكميلان فى الدفاع عن موقفه أن استخدام الغواصة «بولاريس» يعتبر ركنا هاما من أركان الرادع النووى ، لانها بتجوالهـا تحت المياه المتجمدة القطبية تستطيع أن تجول قرب سواحل الاتحـاد السوفيتى ، ولكن بعد أن فجر الاتحاد السوفيتى قنـابله النووية التى تعادل قوتها ملايين الاطنان من المواد المتفجرة ، فى المياه القطبية ، كتبت مجلة «ايكونوميست» أن السوفييت يستطيعون الآن أن يدمروا الغواصة «بولاريس» فى المياه القطبية بقوة تفجيرهم النووى من غير حاجة الى معرفة مكانها . وهكذا تبين كذب الدعوى التى يقدمها ماكميلان بأن عمله هذا يقوى الرادع النووى ، وهذا أيضا يؤدى الى تجنب الحرب !

لقد كتب المؤرخ تيلور أن استسلام ماكميـلان لامريكا ، ليس الا نتيجة حتمية للسياسة التى سارت عليها بريطانيا فى السنوات العشرين الماضية ، فقد درجت فى هذه الحقبة على محاولة استرضاء أمريكا ، وليس تسليمها قاعدة هولى لوتش الا حلقة من هذه السلسلة الطويلة ٠

وهنا يتساءل تيلور : لماذا يستطيع أديناور أو ديجول أن يؤثر على توجيه السياسة الامريكية ، فى حين يعجز ماكميلان عن ذلك ؟ ان السر فى ذلك يرجع الى شعور أمريكا بأن فرنسا والمانيا الغربية مستقلتان، وليس الحال كذلك مع انجلترا .

بين أصحاب الملايين

من المفروض أن يتنازل رؤساء الوزارات والوزراء وكبار رجال الحكومة عن مراكزهم فى الشركات حينما يتولون الحكم ، فهذا ماجرى عليه العرف والنظام فاذا ماخرجوا من الحكم استأنفوا عملهم فى الشركات والبيوت المالية وغيرها ،مثال ذلك أن أنطونى ايدن كان مديرا لأحد البنوك فى أثناء وزارة العمال وان أليفر ليتلتون وزير المستعمرات فى وزارة تشرشل ، كان يرأس شركة مالية كبرى قبل توليه منصب الوزارة وحينما خرج من الوزارة تولى رياسة مجلس ادارة شركة الصناعات الكهربائية ، وان ويتلر وهو خارج الحكم كان يتولى منصبا كبيرا فى شركة كورتولدز للحرير الصناعى .

وهكذا يعود هارولد ماكميلان الى «مؤسسة ماكميلانز» للنشر حينما ينتهى عمله كرئيس للوزراء . ولما سافر الى جلاسجو فى نوفمبر ١٩٦١ ألقى خطابا فى مأدبة أقيمت تكريما له وحضرها كبار رجال المال والصناعة فى اسكتلندة ، وقد استطاع ماكميلان أن يجمع من هؤلاء الاثرياء مبالغ كبيرة من المال لدعم مالية حزب المحافظين . وحينما عاد الى لندن وجه اليه النواب أسئلة عن هذه الزيارة ، وأبدى بعضهم نقده لرئيس الوزراء قائلا انه لا يليق بكرامة رئيس وزراء بريطانيا أن يذهب الى اسكتلندة ليجمع الاموال لحزبه ، وقد استشعر ماكميلان الحرج وحاول التخلص من الاجابة .

وأخيرا رد ماكميلان بأن خطابه لم يسجل ولم يحتفظ أحد بصورة له ، وليس من الصعب علينا أن ندرك السبب فى أن الخطاب لم يسجل ولم يرغب ماكميلان فى الاحتفاظ بصورة له ، ذلك أن المتبرعين بالمبالغ الضخمة لحزب المحافظين من كبار رجال الصناعة وملوك المال الذين كانوا يضعون السياسة التى يسير عليها ماكميلان وكأنهم يقولون للشعب البريطانى : نحن الحكومة ممثلة فى شخص ماكميلان .

وقد كتب روبرت بيتمان فى عدد ١٧ من يونيو من صحيفة «صنداى اكسبريس» متسائلا : هل ماكميلان مليونير ؟ ورد على ذلك السؤال قائلا: ان من يخرج الى النزهة فى الريف المجاور الى لندن يجد قصرا ريفيا فخما محاطا بسياج كبير . هذا هو «بيرش جروف» قصر ماكميلان الريفى . فاذا عدت الى لندن واتجهت الى شارع ستراند فهناك بناء ضخم يضم مبانى مؤسسة ماكميلانز ، ويملك هارولد واخوته جميع اسهمها البالغ عددها ٣٧٠ ألفا باستثناء ٥٠٥ اسهم فقط ، واذا أضفنا الى ذلك قيمة الممتلكات الاخرى تبين لنا أن هارولد ماكميلان وشقيقه دانيل ماكميلان يملكان

ثروة تزيد على اربعة ملايين جنيه استرليني ، هـذا بخـلاف الاراضي والقصور التي تمتلكها زوجة ماكميلان وابنه .

وقد يقال ان هذا ماورثه الشقيقان . ولكن ذلك قول مردود ، ذلك أن موريس كروفورد ماكميلان ، والد هارولد ماكميلان ، حينما توفى عام ١٩٣٦ ترك ثروة قدرت بنحو ١١٢ ألف جنيه استرليني فقط .

ولا ننسى أن هارولد ماكميلان كان يوما ما مديرا لسكة حـديد الغرب . وحينما أممت حكومة العمال السكك الحديدية منحته تعويضا كبيرا . وهناك امتيازات كثيرة مستترة ، فمثلا سافر هارولد ماكميلان في احدى المرات لزيارة اللورد هوم في اسـكتلندة ، وفي أثناء الرحلة طلب «الكمسارى» من ماكميلان ابراز تذكرته ، فما كان من ماكميلان الا أن أخرج من جيبه «مدالية» تخول له حق السفر مجانا على السكك الحديدية البريطانية ، لانه كان مديرا سابقا لاحدى شركات السكك الحديدية .

نقاد ماكميلان من اليمينيين

لم يظهر بين النواب المحافظين في عهد حكومة ماكميلان جناح يسارى يعارضه ، كما كان يقف هو في شبابه لمعارضة ستانلي بولدوين ونيفيـل تشمبرلين .

واذا كان ماكميلان قد نجا من هجوم يسارى فهو لم ينج من هجوم اليمينيين عليه . فحينما استقال اللورد سالسبورى من الوزارة ، بسبب اطلاق سراح الأسقف مكاريوس واعادته من سيشيل الى قبرص ، أخـذ يشن هجوما عنيفا على الحكومة استسلامها للقوى الوطنية في أفريقيا . وفي ١٧ من مارس سنة ١٩٦١ جرت مناقشة في مجلس اللوردات وجه فيها سالسبورى كثيرا من السخرية الى ماكلويد الذى كان وزيرا للمستعمرات حينذاك ، قائلا انه كان يمثل دور لاعب «البردج» في أثناء مفاوضاته في روديسيا . وتتبين السخرية هنا اذا علمت أن ماكلويد ، قبـل دخوله البرلمان ، كان يعمل مراسلا صحفيا لنقل أخبار بعثة «البردج» لاحـدى الجرائد الاسبوعية .

وقال اللورد سلسبورى ان ماكميلان كان قد أعطى ضمانا الى السير روى ويلنسكى، رئيس وزراء اتحاد روديسيا ونياسالاند ، بأن موضوع الانفصال (أى حق أحد الاقاليم الثلاثة وهى روديسيا الشمالية وروديسيا الجنوبية ونياسالاند في الانفصال عن الاتحاد) لن يدخل في دائرة اختصاص لجنة مونكتون (وهى لجنة التحقيق التى بعثتها الحكومة البريطانيـة الى الاتحاد) ولكنه كان بوعده الى ويلنسكى يرمى الى شىء آخر . وهـذا ماأدركه المسئولون في روديسيا وكان سببا في اثارة شـكوكهم . وكان ويلنسكى يحظى بتأييد قوى في دوائر المحافظين ، ولذلك فان حمـلة سلسبورى ضد ماكميلان في مجلس العموم واللوردات سببت له الـكثير

من المتاعب . كذلك كون جماعة من النواب المحافظين ماأطلق عليه اسم «جماعة كاتانجا» للمحافظة على مصالح الرأسمالية البريطانية فى هذه المنطقة وقد اضطر ماكميلان لاسترضاء هذه الجماعة على الرغم من اعلانه مرارا أنه يرفض سياسة الاسترضاء .

ولقد كان أشد ناقدى ماكميلان عنفا هو اللورد لامبتون ، فقد أخذ يشن الهجوم عليه فى البرلمان وفى صحف نيفر بروك . وحينما وقع اختيار ماكميلان على هارولد واتكنسون ليتولى وزارة الدفاع ، هاجمه لامبتون قائلا : ان ماكميلان يعمد الى اختيار الوزراء الذين لايعارضون سياسته بل يطيعونه طاعة عمياء ، واذا كان قد وضع وتكنسون فىوزارة الدفاع ، ليسيطر على هذه الوزارة كما سيطر على وزارة الخارجية ، فهذه سابقة خطيرة ، اذ انها تضع فى يدى رئيس الوزراء سلطات أكبر من السلطات التى كان يتولاها السير ونستون تشرشل .

وكان لامبتون من بين أولئك الذين يقولون ان ماكميلان علىاستعداد لعمل كل مايرضى أمريكا . وقد كتب فى جريدة «الصنداى اكسبريس» فى عددها الصادر بتاريخ ١٨ من يونيو عام ١٩٦٠ يقول ان ماكميلان ما أن تولى الوزارة حتى أخذ يعمل على اكتساب ود امريكا بأى ثمن ، وكانت نتيجة ذلك اجتماع برمودا ، الذى أسفر عن تضحية بريطانيا باستقلالها وبسياستها الخارجية ، كل ذلك لارضاء أمريكا .

خمس سنوات فى منصب رياسة الوزارة

فى ١٠ من يناير سنة ١٩٦٢ أكمل هارولد ماكميلان خمس سنوات فى رياسة الوزارة ، ويرى البعض أنه اذا قدر له النجاح فى الانتخابات القادمة فسوف يضرب الرقم القياسى بين رؤساء الوزراء البريطانيين فى عهد السلم . وتختلف تقديرات المعلقين ، ولكن الكل يجمع على أنه قد بقى فى الحكم مدة أطول مما كان يتصوره أى شخص ، فقد تولى الحكم بعد كارثة السويس عام ١٩٥٦ ، ولا يزال الى الآن .

ولقد نشرت صحيفة «الجارديان» مقالا افتتاحيا قالت فيه انمهمة ماكميلان حينما تولى رياسة الوزارة كانت انقاذ بريطانيا من عواقب مغامرة السويس ، واذا كان من المقرر أنه اشترك اشتراكا كليا فى هذا العمل الجنونى مع بقية وزارة انطونى ايدن ، فلا شك فى أن سياسته فى الأشهر التى أعقبت فشل السويس ، كانت سياسة ناجحة . ولقد تعلمت بريطانيا درسا من مغامرة السويس ، وهو أنها لن تتصرف فى المستقبل باعتبارها دولة كبرى مستقلة ، الا برضاء الولايات المتحدة وموافقتها . انه درس قاس على مثل ماكميلان ، ولكننا نشك فى أنه تعلمه

ولقد تبلورت نتائج هذا الدرس القاسى فى الفشل الذى أحاط بقذيفة «السهم الازرق» وفشل المحاولة التى قام بها ماكميلان للتوفيق بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى ، وفشل السياسة الاقتصادية البريطانية ٠ كل هذه معا ادت الى نتيجة واحدة ، وهى أن بريطانيا لم يعد لديها أمل فى أن يكون لها تأثير حقيقى فى توجيه السياسة العالمية ٠

كذلك لم يعد أمام بريطانيا أمل فى الاعتماد على اقتصادها الوطنى مالم يتم التفاهم بينها وبين السوق المشتركة ٠

ان فشل ماكميلان الحقيقى لايكمن وراء سياسة الدولة الخاطئة ؛ بل يرجع الى أنه عجز عن تحديد أهداف بريطانيا ومثلها العليا ، ان شعاره القومى لايختلف عن شعار «جيزو» أحد سياسى فرنسا فى القرن التاسع عشر وهو «جلب الثراء» ٠

وأعدت جريدة «صنداى بيكتوريال» قائمة بما لماكميلان وما عليه فقالت : لقد زعم ماكميلان عام ١٩٥٧ انه سوف يقضى على البطالة وكانت البطالة حينذاك ٣٨٣ ألفا ، أما اليوم (ديسمبر ١٩٦١) فهى ٣٨٩ ألفا ٠

وفى بيانه الانتخابى عام ١٩٥٩ أعلن أن بريطانيا لم يسبق لها أن بلغت درجة الرخاء والاستقرار الاقتصادى التى بلغتها الآن ، ولكن الأسعار أخذت فى الصعود المطرد ، واضطر ماكميلان لتخفيض اعتمادات بعض المشروعات الصحية ٠

وقد وعد ماكميلان بأن يجدد نشاط الصناعة البريطانية ، ولكن المنتجات الصناعية البريطانية تبلغ فى الوقت الحاضر سدس اجمالى الصادرات الصناعية العالمية فى حين كانت من قبل ربع هذه الصادرات ٠

وفى سنة ١٩٥٩ قرر أن بريطانيا تقدم التأييد الكامل للتوفيق والتصالح متمشية فى ذلك مع شعارات الامم المتحدة ، ولكن وزير خارجيته اللورد هيوم ، شن منذ عهد قريب هجوما عنيفا على الأسس التى قامت عليها الامم المتحدة ٠

وأخذ ماكميلان يسوف فى منح قبرص استقلالها بحجة أن الاتراك واليونانيين سوف يذبح بعضهم بعضا ، ولكن قبرص استقلت أخيرا دون أن تحدث هذه المذابح .

وفى الوقت الذى كان فيه سالازار دكتاتور البرتغال يذبح الرجال والنساء والاطفال بلا رحمة فى انجولا ، بعث ماكميلان وزير خارجيته الى البرتغال فى بعثة «صداقة وود» ٠

وكان وزير مستعمراته لينوكس بويد قد أوشك أن يدبر مذبحة فى نياسالاند ولكن ماكميلان أظله بحمايته ورفعه الى مراتب النبل ٠

وكان ماكميلان ينفى نفيا قاطعا أن القاذفات الأمريكية تحلق فوق بريطانيا محملة بالقنابل الهيدروجينية ، ولكن لما ضيق عليه أعضاء البرلمان الخناق استطاعوا أن ينتزعوا منه الحقيقة المفزعة ٠

وخير ماقيل عن ماكميلان هو ماكتبه هارولد ويلسون اذ قال : ان هؤلاء الذين يمثلون بريطانيا الارستوقراطية يجب أن يتذكروا أن عصر بريطانيا الارستقراطية قد انتهى ، ونحن الآن فى ظل حكومة تعيش على اقتراض المال وتحاول مجاراة سير الزمان .

وكتب اللورد الترنشام مقالا مسهبا فى صحيفة «الديلى اكسبريس» جاء فيه مايلى :

ان سياسة ماكميلان الخارجية أشد عرضة للنقد من سياسته الداخلية . حقيقة أنه تخلص من كثير من الحماقات الجنونية التى سولت له الاشتراك فى مغامرة السويس الخادعة ، ولكنه لايزال يسعى الى المجد دون أن تكون لديه القوة التى تبلغه هدفه .

وفى فترة الركود فى انتاج الاسلحة النووية عمدت الدول الى تقوية أسلحتها التقليدية ، ولكن ماكميلان أخذ يجرى التخفيض فى الجيش البريطانى حتى هبط بالدبلوماسية البريطانية الى درجة مزعجة من الضعف وأسوأ مافى ذلك أنه ضحى بالخدمة العسكرية الاجبارية فى سبيل كسب أصوات الناخبين .

الزعيم الحزبى

من الصعوبة بمكان أن نجد وجها للشبه بين هارولد ماكميلان والرئيس الامريكى الشهير ابراهام لينكولن ، ولكن ماكميلان يحاول التشبه بلينكولن على الرغم مما بينهما من بون شاسع . ففى المؤتمر السنوى للنقابيين المؤيدين لحزب المحافظين الذى عقد فى ١٩ من مارس ١٩٦٠ وجه ماكميلان خطابا للمؤتمرين استشهد فيه بالعبارة المشهورة التى وردت على لسان لينكولن « قد تستطيع أن تخدع جميع الناس فى بعض الاوقات ، وقد تستطيع أن تخدع بعض الناس فى كل الأوقات ، ولكنك لن تستطيع أن تخدع كل الناس فى جميع الاوقات »

والغريب أن ماكميلان الذى استشهد بهذه الحكمة الخالدة يسعى الى العمل بنقيضها ، فهو يحاول أن يخدع كل الناس فى جميع الأوقات !

ان ماكميلان لم يشترك فى المؤتمر السابق للنقابات ، ولكنه بعث اليهم برسالة ذكر فيها أنهم «طليعة الجيش الظافر» وكان يقصد بذلك اعدادهم للحملة الانتخابية ، ولما فاز فى الانتخابات وجه اليهم كلمة شكر على مساهمتهم فى تحقيق النصر للمحافظين ، كذلك وجه كلمة شكر الى رجال الاعمال وغيرهم من الرأسماليين الذين ساهموا بأموالهم فى حملة الاعلان الضخمة التى سبقت الانتخابات العامة .

ولكن هؤلاء النقابيين ، الذين أحرزوا النصر لماكميلان وحزب المحافظين فى الانتخابات العامة ، لم يفوزوا بأكثر من عبارات الثناء ، ذلك

أن هارولد ماكميلان وحزبه لم يهيئوا لهم مقاعد فى مجلس العموم ، ولو كان ماكميلان حقا يؤمن بالنقابات والنقابية لأفرد للنقـــابيين المحافظين دوائر انتخابية خاصة فى التنظيمات الحزبية التى يجريها المحافظون قبل الانتخابات ، ولكن شيئا من ذلك لم يحدث ٠

لننتقل الى ناحية أخرى ، وهى تشكيل ماكميلان لوزارته الجديدة فحينما أراد ماكميلان اختيار وزرائه ، انتقاهم جميعا من خريجى كليـــة ايتون ، حتى وزير العمل نفسه من طلبة ايتون السابقين، أما النقابيون فلم يكونوا موضع تفكيره حين اختيار وزرائه .

وليس هذا بعجيب ، فحزب المحافظين هو حزب أصحاب المشروعات لاحزب الأجراء ٠ وهو يصر على الا يكشف دفاتره خشـــية أن يفضح أمر الاكتتابات الضخمة التى تقدمها الرأســـمالية المسيطرة لخزينـــة حزب المحافظين ٠

وفى أثناء الخطاب الذى ألقاه ماكميلان فى مؤتمر النقابات عام ١٩٦٠ استنكر الرأى القائل بأن هناك تعارضا أساسيا بين النقــابية وبين حزب المحافظين ، وحجته فى ذلك أن المحافظين كانوا طوال تاريخهم يعطفون على العمال ويؤيدون حقهم فى التنظيم النقابى ، وضرب مثلا لذلك بأن القوانين التى تحرم الاجتماعات التى يعقدها العمال ألغيت على أيدى حكومة اللورد ليفربول المحافظة عام ١٨٢٤ .

وردنا على ذلك هو أن ماكميلان اذا كان حقا متعمقا فى التــاريخ كما يشيعون عنه ، فلا ندرى أى كتب يقرأ . فلو أنه عنى بقراءة تاريخ الحركة النقابية فى بريطانيا لأدرك أنها كانت ســـلسلة من الصراع بين أصحاب الاعمال من المحافظين والعمال الذين يخوضون المعركة تلو المعركة ضد هؤلاء المحافظين للحصول على الكفاف ٠ ولو أنه كلف نفسه بعض المشقة وقرأ تاريخ سكة حديد الغرب فى بريطانيا ، وهى الشركة الكبرى التى كان هو مديرا لها ، اذن لأدرك أن مديرى هذه الشركة من المحافظين رفضوا باصرار الاعتراف لعمال الشركة بحق تكوين نقابة ، ولم يفعــلو ذلك الا مرغمين بعد الاضراب الذى حدث عام ١٩١٠ ٠ وليذكر ماكميلان أن أعضاء مجلس العموم من المحـــافظين ظلوا طوال قرن كامل يعتبرون نقابات العمال عدوهم الطبيعى ٠ واذا أردت أن تعرف موقف المحــافظين على حقيقته فى الوقت الحاضر فما عليك الا مراقبة مايفعله المحافظون حينما يثار النزاع بين العمال واصحاب الاعمال ٠ واذا كانت نقابات العمال على شيء من القوة فى الوقت الحاضر فان هذا لايرجع الى المساعدات التى تلقتها من حكومات المحافظين ، ولكنه يرجع الى كفاحها المتواصل لعدة أجيال ٠

أما وقد اتضحت الحقيقة فان ماكميلان اما أن يكون جاهلا بالتاريخ واما انه يفترض فى مستمعيه من النقابيين الجهل بحيث لا يستطيعون اكتشاف أكاذيبه ٠

لقد أخذ ماكميلان يزهو أمام أولئك المأجورين من النقــابيين بأن حكومته سوف تحقق «العمالة الكاملة» وأخذ فى العهد الاخير يردد هذه

العبارة فى مجلس العموم . ولننظر الى موقفه السابق فى مجلس العموم قبل أن يصبح رئيسا للوزارة .

لقد كان فى ذلك الوقت يلقى الخطب الرنانة قائلا ان العمالة الكاملة تتحقق اذا لم ترتفع الاسعار واذا لم يكن هناك تضخم نقدى . ولكن ماالذى يجرى فى الوقت الحاضر ؟ ان العمال البريطانيين يعلنون الاضراب بين حين وحين مطالبين بزيادة الاجور لامن أجل الرفاهية ولكن لمواجهة ارتفاع أجور المساكن الذى جاء نتيجة لقانون الايجارات الجديد .

ولنا أن نتساءل : أين كان هؤلاء النقابيون المحافظون (المأجورون) يوم قدمت حكومة ماكميلان قانون الايجارات الجديد الى مجلس العموم ؟ وهل استشارهم ماكميلان فى هذا الأمر ؟ أو هل استشار أية هيئة عمالية ؟ ..

ولقد صرح ماكميلان لهؤلاء النقابيين المأجورين بأن الانتاج البريطانى فى ازدياد مطرد نتيجة للدفعة والنشاط اللذين بعثتهما فيه حكومة المحافظين ! ولكن ، الا يعلم ماكميلان أن الاقتصاد البريطانى فى الوقت الحاضر يهتز من ضعف الأسس التى أقيم عليها ؟

ان ماكميلان نفسه الذى أدلى بهذه التصريحات عاد بعد عامين ليعلن أن بريطانيا لن ترفع أجور عمال السكك الحديدية ولا عمال النقل البرى ولا عمال البريد ، لانه ليس لديها المال اللازم لتغطية هذه الزيادة .

ولقد ظل المحافظون يوجهون السياسة الاقتصادية البريطانية من غير تخطيط طوال عشر سنوات توالت فيها على البلاد الازمات المالية والاقتصادية . وأخيرا استيقظ ماكميلان أو على الأقل أيقظته من سباته أجراس الخطر فبدأ يشكل هيئة للتخطيط .

وما دمنا نتحدث عن زعامة ماكميلان فلنتعرض لنقطة هامة وهى مدى قدرته الخطابية ، وماكميلان من هذه الناحية لايمكن أن يوضع فى الكفة الراجحة . ان القدرة الخطابية تتوقف على مدى ايمان الخطيب بما يقول ، وماكميلان فى هذه الناحية لايخرج عن دور الممثل ، وقد يكون بارعا ولكنه لن يكون مصدر الهام .

لقد ألقى ماكميلان خطابا فى المؤتمر الوطنى لشباب المحافظين بتاريخ ٢٥ من فبراير عام ١٩٦١ وفى هذا الخطاب قدم عرضا تاريخيا لحزب المحافظين وما ساهم به من اصلاحات هائلة اجتماعية وسياسية واقتصادية وما أداه من خدمات للعمال فى المصنع والمنجم والحقل .

ولكن ماكميلان هو نفسه الذى كان يشن هجوما عنيفا على حزب المحافظين فى فترة ماقبل الحرب العالمية الثانية متهما الحزب بتقصيره المؤلم فى أداء الخدمات الاجتماعية وفى رعاية الطبقات العاملة . فأى الماكميلين نصدق : ماكميلان عضو مجلس العموم فى فترة ماقبل الحرب ، أو ماكميلان رئيس الوزراء فى فترة مابعدها ؟

لقد عرض ماكميلان فى خطابه أمام شباب المحافظين لسؤال دقيق ،

وهو لماذا لم ينضم الى حزب العمال فى أثناء نشأته الاولى ؛ ورد على ذلك قائلا : ان الاشتراكية الماركسية غريبة على انجلترا ، وان كارل ماركس نفسه ليس بريطانيا .

وقياسا على ذلك، فعليه أن يلفظ الكتاب المقدس ، لانه ليس انجليزيا وأن يكف عن اعتبار دزرائيلى نبى السياسة البريطانية ، لانه ليس من عنصر بريطانى .

لقد ذكر ماكميلان فى خطابه أن حزب المحافظين فى بريطانيا كان طليعة التقدم فى خلال القرن التاسع عشر . ونحن نسأله أيضا ، ألم يقرأ شيئا عن نشاط التقدميين فى القرن التاسع عشر من أمثال كارل ماركس وفردريك انجلز وأترابهما ؟

اننا لاندرى : بماذا كان يرد ماكميلان ؟ ولعله يحـــاول مع شباب المحافظين ماحاوله مع النقابيين المأجورين من تطبيق «حكمته» القـــائلة: «تستطيع أن تخدع جميع الناس فى كل وقت» .

رجل أوربا المريض

فى يوليو ١٩٦١ أصبح من الواضح أن بريطانيا تنزلق مرة أخرى نحو أزمة اقتصادية ، ففى ٢٥ من يوليو وقف وزير المالية سلوين لويد على منبر الخطابة فى مجلس العموم ليعلن البيان الخاص بهذه الازمة ، ويقرر أن هذا هو ثالث عام يتبين فيه العجز فى ميزان المدفوعات ، واذا وازنا بيان سلوين لويد عن الحالة الاقتصادية بالبيان الذى قدمه ماكميلان فى الحملة الانتخابية نجد الفرق كبيرا بين الحالتين ؛ فقد هبط احتيـاطى بريطانيا من الذهب والدولار بمقدار ١٦٤ مليون جنيــه استرلينى فى الشهور الستة السابقة . وقدم سلوين لويد اقتراحات من أهمها أن يجرى تخطيط اقتصادى تشرف الدولة على تطبيقه . والغريب أن المحافظين ظلوا سنوات كثيرة يسخرون من فكرة التخطيط الاقتصادى ، فماذا هم قائلون اليوم ووزير ماليتهم يدعو الى التخطيط ؟

وتحدث سلوين لويد فى بيانه عن الاجراءات التى يجب اتخاذهـــا للاشراف على الاقتصاد الرأسمالى وعلى الارباح وخاصة الارباح الناتجة عن المضاربات وغيرها من وسائل التهرب من الضرائب ، وطالب بتخفيض عام فى المصروفات وخاصة ميزانية الدفاع قائلا : ان الثمانين مليون جنيه استرلينى التى تنفق سنويا على التزامات بريطانيا فى حلف الاطلنطى وبخاصة ماينفق على الاحتفاظ بقوات بريطانية فى المانيا يجب أن توقف عند حد معين . وخلص من ذلك كله الى أن المبالغ الضخمة التى يستهلكها بند المصروفات ، تؤثر تأثيرا سيئا على ميزان المدفوعات ، ويجب اتخاذ اجراء بشأنها فى الميزانية التالية .

هذه وغيرها هى الاجراءات التى اقترحتها الحكومة لمعالجة الأزمـة

المالية والاقتصادية . وفي أثناء مناقشة هذه الميزانية في مجلس العموم تحدث هارولد ويلسون باسم المعارضة فقال : من الغريب أن يتحدث الينا اليوم وزير المالية بهذه اللهجة المحزنة في حين أن رئيس وزرائه كان قد أعلن في أثناء الانتخابات أن الاقتصاد البريطاني لم يكن يوما ما أسلم منه اليوم ، وان النقد البريطاني ثابت وميزان المدفوعات قوى .

وألقى ويلسون عبء المسئولية كلها على عاتق ماكميلان قائلا : انه هو الذى غرر بالأمة ودفع بها الى التواكل ، وقال ويلسون فى خطابه :

حينما تولى ماكميلان رياسة الوزارة ظهر على شاشة التليفزيون ليوجه حديثا الى الأمة بأنه سوف يعمل على استعادة عظمة بريطانيا ولكنه اليوم قضى على سلامة اقتصادياتنا وعرضها الى اشد الاخطار ، ونحن الآن مشرفون على حالة نستحق معها تلك الوصمة ، التى وصف بها القيصر نيقولا الامبراطورية العثمانية المتداعية ، اذ قال : « انها رجل أوربا المريض » .

وأنا لا ألقى القول جزافا كما انه ليس من نسج الخيال . فان احدى المجلات الألمانية الكبرى نشرت مقالا افتتاحيا عن بريطانيا تحت عنوان : «رجل أوربا المريض» وأنا لا أقول أن البريطانى قد فقد حيويته أو قدرته على الابداع والابتكار ، ولكن الخطأ يرجع الى افتقارنا للزعامة الملهمة والدعوة الى الخدمة العامة والتضحية بالمصالح الفردية فى سبيل المصلحة الجماعية تلك هى الصفات اللازمة ولكن الحكومة عاجزة عن اتخاذها .

ووقف ماكميلان للرد على حملة هارولد ويلسون وقد وجد صعوبة كبيرة فى اعداد الرد المقنع ، ولكنه قرر أن ماقاله فى سبتمبر عام ١٩٥٩ كان صحيحا في حينه ، وان ماقلب ميزان المدفوعات رأسا على عقب هو المتاعب الخارجية التى لادخل لبريطانيا فيها ، لان بعضها نشأ من التأميم وهبوط أسعار البترول . وأخيرا لجأ الى العبارات المزخرفة التى لا تغنى عن الازمة الاقتصادية شيئا. وبعدها انتقل الى السخرية من وزارة العمال وهو موضوع معاد مكرر كان ماكميلان يلجأ اليه كلما أعجزته الحجة وأعوزه الدليل .

ولقد كان ماكميلان فى نقده اللاذع لحكومة العمال يتحدث دائما عن موضوع التأميم وفشله . ولكن هل فشل العمال حقا فى موضوع التأميم ؟ وهل العمال وحدهم أصحاب فكرة التأميم ؟

لقد تم تأميم السكك الحديدية فى أثناء الحرب ، وكانت فكرة تأميم هذا المرفق مبدأ يدين به تشرشل قبل ذلك بكثير ، بل كان يؤمن به جلادستون من قبله . ولو كان هارولد ماكميلان رئيسا للوزراء عام ١٩٤٥ أى بعد الحرب مباشرة ماكان فى وسعه الا أن يؤمم السكك الحديدية .

أما عن تأميم مناجم الفحم فقد كان هذا رأى لجنة ريد ، ولم يكن أمام هذه اللجنة الا أحد البديلين ، فاما أن تؤمم الفحم واما أن تعيد تنظيمه على أن تتلقى صناعة استخراج الفحم اعانة حكومية ، فاختارت الامر الاول .

وما طبق على الفحم طبق على صناعة الكهربا والغاز فى صناعات كان ماكميلان قبل الحرب قد طالب بأنها يجب أن تضم الى الملكية العامة .

ولنا سؤال هنا ، وهو : اذا كان حقا ما يقوله المحـــافظون من أن التأميم قد فشل فشلا تاما ، فلماذا لم يلغوا تأميم كل ما أممته حكومة العمال ؟ .

ان ماكميلان كان من أعنف ناقدى حكومة العمال فى موضوع التأميم وحينما تولى وزارة الصحة والاسكان وتولى الاشراف على بناء المســاكن طبقا للمشروع الفردى ، أخذ يزهو بأنه استطاع فى أثناء توليه المنصب أن ينشىء ٣٠٠ ألف مسكن ، ولكن يلاحظ هنا أنه منذ تولى المشروع الفردى عملية الاسكان نقص عدد المساكن المنشأة الى حد كبير .

وكان المحافظون يعارضون تأميم الخدمات الصحية وانشاء ما يسمى بدولة الرفاهية أو حكومة الخدمات الاجتماعية ، ولكنهم حينما تولوا الحكم لم يستطيعوا الغاء تأميم هذه الخدمات خوف اثارة الرأى العام . ومعنى ذلك أن الرأى العام كان يؤيد عملية التأميم .

فاذا انتقلنا الى السياسة الخارجية نجد أن ماكميلان ، بعد أن قضى فى رياسة الوزارة خمس سنوات ، قام بزيارة لاديناور فى بون . وقالت صحيفة « الديلى ميل » حينذاك ، ان ماكميلان ذهب الى ألمانيا ليبلغ أديناور أن بريطانيا اصبحت عاجزة عن الانفاق على قواتها المرابطة فى ألمانيا . وقد أبدى اديناور استعداده لمســاعدة بريطانيا بشراء أسلحة بريطانية وهكذا أصبحت ألمانيا بعد خمسة عشر عاما من هزيمتها الساحقة ، فى مركز يسمح لها باقراض بريطانيا والمساهمة فى تفريج أزمتها المالية . لا ، بل ان بريطانيا العظمى فى عهد ماكميلان لم تستنكف مد يدها الى سويسرة الصغيرة لتقترض منها المال .

وفى الفترة التى قضاها المحافظون فى الحكم أنفقت بريطانيا عــلى الدفاع ١٦ ألف مليون جنيه استرلينى . ومع ذلك لم تستطع اعداد أى وسيلة ناجحة للدفاع عن نفسها ضد الحرب النووية ، ويكفى أن تنطلق الصواريخ حاملة عددا من القنابل الهيدروجينية لتدمر بريطانيا كلها .

والحقيقة أن بريطانيا أصبحت ذنبا لأمريكا ، وليس هارولد ماكميلان فى نظر جون كينيدى ، بأكثر من ولتر أولبرخت فى نظر نيكيتا خروشوف بل ان قطاعا من الرأى العام العسكرى فى أمريكا يرى أن انجلترا ليست أكثر من قاعدة فى غرب أوربا وانه من الممكن الاستغناء عنها عند اللزوم .

والرأى السائد هو أن أمريكا قد ألزمت بريطانيــا بالانضمام الى السوق الاوربية المشتركة حتى تصبح عضوا فى الجهاز الاقتصادى لغرب أوربا ، والذى حفز أمريكا على ذلك هو أغراض دفاعية محضة .

واذا ما انضمت بريطانيا الى السوق المشتركة فان استقلالها يصبح فى زوايا النسيان ، ويصبح مجلس العموم البريطانى العريق هيئة نيابية اقليمية للتشريع المحلى فقط .

ولقد كتب جون جونر مقالا فى صحف «بيفر بروك» تحت عنوان « آخر رئيس وزراء » ولم يكن هدف الكاتب أن يكتب عن بريطانيا وقد دمرتها الحرب النووية ولكنه يكتب عن بريطانيا وقد فقدت هيبتها وسمعتها ومركزها بحيث أصبح رئيس وزرائها وقد جرد مما كان له من أهمية دولية . ويقول الكاتب : ان أول رئيس وزراء يتناوله هذا الحرمان هو هارولد ماكميلان ، اذا قدر له أن يبقى فى منصبه بعد الانتخابات الجديدة .

وعلى أية حال فهذه تكهنات عن المستقبل ، أما عن الحاضر فان هارولد ماكميلان هو بحق السياسى الذى لعب دورا هاما فى الحوادث التى أدت ببريطانيا الى أن تصبح « رجل أوربا المريض » .

السوق المشتركة أو الكومنولث

فى آخر يوليو ، قبيل العطلة البرلمانية الصيفية ، وقف ماكميلان ليلقى فى مجلس العموم بيانا عن سياسة الحكومة البريطانية تجاه المجتمع الاقتصادى الاوربى (السوق الاوربية المشتركة) . وقد أعلن ماكميلان أن الحكومة قد استقر رأيها على تقديم طلب للانضمام للسوق . وكان هذا البيان غير متوقع ولذلك ازدحم المجلس بالزائرين للاستماع الى ذلك الخطاب التاريخى .

وقد جاء فى خطاب ماكميلان ما يلى :

ان العلاقات المستقبلة بين السوق الاوربية المشتركة والمملكة المتحدة والكومنولث وبقية أوربا الغربية هى مسائل ذات أهمية حيوية بالنسبة لبريطانيا ، بل بالنسبة لجميع بلاد العالم الحر . ان هذا موضوع سياسى بقدر ما هو موضوع اقتصادى ، ومع أن معاهدة روما ذات صبغة اقتصادية فلها أيضا هدف سياسى كبير ، وهو تعزيز الوحدة والاستقرار فى أوربا الغربية ، وهو عامل حيوى فى الكفاح من أجل الحرية والتقدم . والعالم الآن يتجه نحو التكتل والعمل المشترك بين مجموعة من الدول من أجل الصالح المشترك . وما دام الامر كذلك فمن واجبنا أن نساهم فى تعزيز وحدة أوربا ، وأن نرتبط معها بأوثق الروابط .

ولكن ينبغى أن نفهم أنه اذا كان ارتباطنا بأوربا سوف يسفر عن فصم العلاقات بيننا وبين الكومنولث ، فالخسارة أكبر من الكسب .

ثم انتقل الى المميزات التى تجنيها بريطانيا من الانضمام الى السوق الاوربية المشتركة ، فقال : ان هذه السوق الكبرى سوف تضم نحو ثلاثمائة مليون نفس من الشعوب ذات الاقتصاد المتقدم ، وهذا مما يؤدى الى توسع اقتصادى كبير ، والى زيادة الطلب على منتجات كبيرة الكمية من بلاد العالم الاخرى ، وهذا سوف يضاعف حجم التجارة الدولية ، وينتج آفاقا جديدة امام البلاد المتخلفة .

ولكن لما كانت مصالح بلاد الكومنولث فى الاعتبار الاول فلن تقدم أية حكومة بريطانية باجراء اتفاق مع بلاد السوق المشتركة الا بعد أن تجرى محادثات سابقة مع بلاد الكومنولث لمراعاة مطالب هذه البلاد ، كما تجرى محادثات مع بلاد منطقة التجارةالاوربية الحرة فى الدول السبع، وبجانب ذلك كله حاجات الزراعة البريطانية ٠

وتقديرا لكل هذه الاعتبارات فان الحكومة البريطانية قد قررت أن تتقدم بطلب انضمام الى السوق المشتركة استنادا الى المادة ٢٥٧ من معاهدة روما مع الاحتفاظ برعاية مصالح المملكة المتحدة والكومنولث ومنطقة التجارة الاوربية الحرة ٠

والسؤال الآن : كيف تستطيع الحكومة البريطانية الانضمام الى السوق المشتركة مع حماية مصالح الكومنولث وحماية المنتجات الزراعية البريطانية ؟ ٠

لقد لزم هيو جيتسكيل، زعيم العمال، الصمت، ووقف أنطونى فل، أحد النواب المحافظين ، ليقول لماكميلان ان بيانه هز أركان المجلس هزا عنيفا ، وأن ما هو قادم عليه يجعل رئيس وزراء بريطانيا كارثةوطنية. وهنا ثار ماكميلان وحاول ان يصدر أمره الى النائب بالجلوس ، ولكن العضو المحافظ رفض قائلا : ليس من حقك أن تصدر لى مثل هذا الامر ، انه من حق رئيس المجلس فقط .

ومضى العضو يقول : ألا يعلم رئيس الوزراء أنه يقامر بمصالح ٦٣٠ مليونا من أبناء الكومنولث ، وأن هذه أكبر كارثة عرفتها بريطانيا منذ أجيال ؟ ألا يعلم رئيس الوزراء أنه من المستحيل ، فى ظل معاهدة روما الحالية ، حماية المنتجات الزراعية البريطانية ؟ وفى هذه الحالة هل رئيس وزراء بريطانيا لديه ما يكفى من النفوذ لكى يستبدل بمعاهدة روما معاهدة أخرى تكفل حماية مصالح الكومنولث والمنتجات الزراعية البريطانية ؟ ٠

وفى الوقت الذى واجه ماكميلان هذه العاصفة قابلته عاصفة شديدة أخرى ، وهى أن مائة من النواب المحافظين اعترضوا على الاجراء الذى كانت الحكومة تزمع اتخاذه بارسال قنابل الى قوات الامم المتحدة فى الكونغو ٠ وكانت الحكومة قد أعلنت فى برنامجها الانتخابى أنها سوف تقف دائما بجانب الامم المتحدة ولكن فريقا كبيرا من النواب المحافظين استطاعوا تكوين فريق برلمانى لمعارضة أى اجراء يتخذ ضد كاتانجا ، وقد سميت هذه الجماعة « فريق كاتانجا » وقد اضطرت حكومة ماكميلان للاذعان لمطالبهم ٠

وفى مقابل اذعان ماكميلان لفريق كاتانجا أوقفوا حملة المعارضة ضده حين مناقشة السوق الاوربية المشتركة ، وهكذا استطاع ماكميلان بمناوراته أن يتفادى مؤقتا موجة المعارضة القوية لمشروعه الخاص بالانضمام الى السوق الاوربية المشتركة ٠

ولكن كيف نجا ماكميلان من العاصفة ؟

لقد ضحى بالأمم المتحدة فى وقت كانت فى أشد الحاجة فيـــه الى التأييد ، لأنها لا تمر بأزمة عابرة ، بل بأزمة تاريخية بعيدة المدى ، هى أزمة تقرير مصير الحرية فى الكونغو والارتفاع به فوق مصالح الرأسمالية والاستثمارات الاوربية .

التجارب النووية لروسية

والتفجيرات النووية الامريكية فى جزيرة كريسماس

فى ٣١ من أكتوبر سنة ١٩٦١ ندد ماكميـلان فى مجلس العموم بموقف الاتحاد السوفييتى اذ انسحب من مؤتمر جنيف لوقف التجارب النووية واستأنف تفجيراته فى المتجمد الشمالى .

ولكن اذا كان ساخطا على الاتحاد السوفييتى لاستئنافه التجارب النووية ، أيكف هو عن هذه التفجيرات أم يستأنفها ؟

لننظر الى موقفه أمام البرلمان . انه موقف الدكتور جيكل فى صراعه مع المستمر هايد ، ولننظر الى من لأيهما تكون الغلبة .

لقد مضى ماكميلان يتحـدث عن الجـريمة الكبرى التى ارتكبها الاتحاد السوفييتى فى حق الانسانية باستئنافه التفجير النووى فى المنطقة القطبية ، ثم دار طويلا حول الموقف وانتهى بالقـول الى أنه لكى يمكن المحافظة على توازن القوى فان بريطانيا (وأمريكا) على استعداد لاستئناف التجارب النووية التى سوف تلوث الجو وتلوث لبن الاطفال كما فعلت التجارب السوفيتية .

وبعد فترة قصيرة اجتمع مع جون كنيدى فى برمودا ، وكان من بين ما دارت حوله محادثاتهما العرض الذى تقدم به كنيدى اليه كى توافق بريطانيا على أن تستأنف أمريكا تجاربها النووية فى جزيرة كريســماس بالمحيط الباسفيكى .

وفى ٨ من فبراير الماضى وقف ماكميلان ليعلن فى مجلس العموم أن الحكومة البريطانية قد وافقت على طلب أمريكا باستخدام جزيرة كريسماس للتفجير النووى .

ولقد تحدث ماكميلان ، بعد عودته من برمودا ، عن «سباق التسلح النووى الرهيب » ولكنه من ناحية أخرى وافق على منح الغواصات الذرية الامريكية التى تحمل قذيفة « بولاريس » قاعدة على ساحل اسكتلندة ، وهو بهذا العمل يساهم مساهمة فعالة فى سباق التسلح النووى ، لأن كل غواصة ذرية تحمل قذائف تستطيع تدمير ١٢ مدينة بأكملها .

وقبل أن يختتم ماكميلان خطابه وقف أحد أعضاء المجلس يسأله : اذا كان لابد من التجارب النوويه الهيدروجينية فوق جزيرة «كريسماس» أفليس من المستحسن تغيير اسمها حتى لا يقترن اسم رسول السلام بالتفجيرات النووية ؟

بداية النهاية

فى أوائل عام ١٩٦٢ ألقى ماكميلان، أمام شاشة التليفزيون، حديثا سياسيا وقد علقت صحيفة « الديلى تلغراف » قائلة : لقد بدا ماكميلان ، وهو فى سن الثامنة والستين. كأنه يصغر هذه السن بعشرين سنة، فهل يا ترى جد حادث دولى سعيد اعاد اليه شبابه ، أو أن هذه مهارة جديدة لخبراء التجميل الذين أعطوه على الشاشة من وسائل التجميل ما تتيحه المساحيق والدهون لممثلة عجوز قبل أن تصعد خشبة المسرح ؟ ٠

ولكن هذا المظهر الزائف لم يخف على رجال الصحافة ، وبخاصة معلق « الصنداى تلغراف » و « الابزرفر » اذ قررا أن ماكميلان ، سواء حينما ظهر على شاشة التليفزيون ليلقى حديثه السياسى او حينما ذهب الى اكسفورد ليلقى كلمته على الخريجين ، فان الناظر اليه يشعر بأنه رجل عجوز يسير بخطى سريعة نحو الفناء .

ولقد أجرت احدى هيئات الاحصاءات تجربة لمعرفة مدى اقبال أصحاب أجهزة التليفزيون على مشاهدة ماكميلان حين القاء خطاب سياسى هام وجعلت التجربة تدور حول اجتماعه مع كنيدى فى برمودا ٠ وقد تبين لها ما يلى :ـ

حينما بدأ الحديث كان مائة ألف جهاز تليفزيون مفتوحة على القناة « ١ » ٠

وحينما بدأ الحديث عن الدول الناشئة فى افريقيا وآسيا غادر التليفزيون ٣٣٦ ألفا ، ولما بدأ يتحدث عن اجتماعه مع كنيدى غادر المكان مائة ألف آخرون ٠ وحينما بدأ يعلق على اجتماعه مع كنيدى قائلا : لقد أجرينا أحاديث مثمرة ، لم يبق أمام أجهزة التليفزيون الا عدد قليل ٠

وتستخلص هذه الهيئة من تجاربها أن ماكميلان لن يقدر له النجاح فى الانتخابات القادمة ، لانه لم يعد فى استطاعته اجتذاب مستمعيه ولا مشاهديه ٠

وليس هذا رأى هيئات الاحصاء فقط ، بل ان صحف المحافظين نفسها لديها هذا الشعور، فقد كتبت «الصنداى تايمز» تقول انه من غير المحتمل أن تبقى حكومة ماكميلان بعد الانتخابات القادمة ٠ وفى مناسبة أخرى علقت الصحيفة نفسها على الموقف قائلة :

« فى عام ١٩٥٥ طلب المحافظون من ونستون تشرشل أن يعتزل السياسة حتى يستطيعوا الفوز فى الانتخابات ، ويبدو أنهم عام ١٩٦٣ سوف يتقدمون الى ماكميلان بالطلب نفســه ، على أمل أن يفوزوا فى الانتخابات القادمة . ولن يكون المحافظون من الخشونة بحيث يطردون ماكميلان طردا ، ولكنهم سوف يزودونه باحدى مراتب النبلاء ، ويهيئون له مقعدا فى مجلس اللوردات حتى تتاح له الفرصة لكتابة مذكراته .

... لقد صرح ماكميلان مرارا بأنه لن يكتب مذكراته ، ولكن الرأى العام فى شوق لقراءة هذه المذكرات ، لا لأنها مليئة بالحوادث المثيرة ، كما هو الحال فى مذكرات تشرشل ، ولكنها على الاقل سوف تلقى ضوءا على ماكان ماكميلان يهرب من الاجابة عنه حينما يحرجه النواب فى مجلس العموم . ولعله يطلع الرأى العام البريطانى على التاريخ السرى لمغامرة السويس التى كانت خاتمة تاريخنا الامبراطورى ، ولعله أيضا يطلعنا على أسرار رحلته الأخيرة الى موسكو وما جرى من أحاديث بينه وبين خروشوف وميكويان ، ولعله أخيرا يطلعنـــا على ذلك السر العجيب ، وهو أن ماكميلان الشاب التقدمى الثائر الذى يجنح الى اليسارية ويدعو الى رعاية الطبقة الكادحة ، ينقلب الى محافظ يمينى عريق ، ويصبح أمل أصحاب الألقاب وأرباب الجاه والثراء ، والمتحدث باسم الرأسمالية البريطانية البالية التى صارت من المتناقضات الاجتماعية فى النصف الأخير من القرن العشرين .

اذن فليكتب ماكميلان مذكراته ، لعل فيها عبرة وعظة لمن يخلفه على مقعده فى « داوننج ستريت » .

تم الكتاب

فهرس

الموضوع	الصفحة

هيئة قناة السويس

مناقصة عامة لمقاولى

القطاع العام

تطرح هيئة قناة السويس فى مناقصة عامة عملية انشاء كوبرى الرسوة بمدخل بور سعيد مكون من فتحتين متحركتين وأربع فتحات ثابتة من الخرسانة المسلحة ويرتكز على قيسونات خرسانية .

ويمكن الحصول على مستندات المناقصة بالحضور شخصيا الى مقر الهيئة بالاسماعيلية (التخطيط والابحاث) .. وذلك نظير مبلغ خمسة وعشرين جنيها وتقدم العطاءات باسم السيد/رئيس هيئة قناة السويس (التخطيط والابحاث) فى ميعاد أقصاه الساعة الثانية عشرة ظهرا يوم **الاثنين ١٥ أبريل ١٩٦٣ مصحوبة بتأمين ابتدائى قدره ثلاثة** آلاف جنيه .. ولن يلتفت الى اى عطاء يقدم بعد هذا الموعد او غير مصحوب بالتأمين المذكور .



مطابع الدار القومية

١٥٧ شارع عبيد - روض الفرج

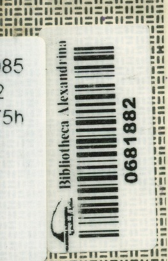
تليفون { ٤٠٧٥٣ - ٤١٠١٢
٤٠٥٨٨ - ٤٠٨١٤ }



مطابع الدار القومية

١٥٧ شارع عبيد - روض الفرج

تليفون ٤٠٧٥٣ - ٤١٠١٢
٤٠٥٨٨ - ٤٠٨١٤



العدد ٤٧ الثمن ١٢ قرشا